

## ملحمة أبي عبيدة في الإسلام

لاشك أن أبا عبيدة دخل دوحة الإسلام بمجموعة من المناقب، هي التي دفعت به إلى أن يكون من السابقين الأولين، وألا يطول به التفكير ليلتمع نور الإسلام في صدره ويهتدى إلى الإيمان. وتشمله هداية تامة مع مناقبه ليزداد صقله في رحاب الدين الذي آمن به، وقاده إلى اليقين في الواحد الأحد رب العالمين، وإلى الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم الذي فنت ذاته في النهوض برسالته الكبرى التي آمن بها أبو عبيدة، وآمن بواجبه فيها، هذا الواجب الذي حداه ألا يلتفت إلى ذاته ولا إلى زخرف أو بهرج أو صيت أو جاه، وأن يكون للكل مؤثراً إياهم على نفسه، فصار منذ أسلم مبكراً - في صدارة المجاهدين بالمعنى الحقيقي الأصيل الرفيع، واطر بسيرته ملحمة لافتة من الجهاد.

### في مكة

### والهجرة إلى الحبشة

تعرض المسلمون منذ تسرب نبأ الدعوة، إلى اضطهاد شديد من كبار قريش، شارك فيه الغلمان والسفهاء.. فقد شنفت قريش للنبي، وجعل طواغيتها يتهمونه بالجنون والكهانة، منهم من يقول مجنون، ومنهم من يقول كاهن، ومنهم من يقول شاعر.. فنزلت سورة القلم ترد على استهزائهم، ومع نزول سورة الشمس بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، في دعوة عشيرته الأقربين، فلم يلب أحد منهم دعوته، وترصده أبو لهب، وطفق يحرض بني هاشم أن يأخذوا على يديه، ويعترضه اعتراضاً غليظاً، ويحرض قريشاً عليه، ويحثها على أن تذهب بنذيرها وتهديدها إلى عمه أبي طالب.. وأخذت قريش تتصاعد في نكيرها وصددها وإعناتها لمحمد، فلما أخفق سعيهم معه، ويئسوا من إثائه، أمسكوا

بتلابيب المستضعفين، يهددونهم ويتوعدونهم ويذيقونهم من صنوف العذاب ألوأناً شهدتها رمضاء مكة فيما جرى لبلال وغيره من العبيد والمستضعفين، ثم جعلت قريش تلاحق من آمن من أبناء الأشراف، فلم ينج منهم عثمان بن عفان، ولا الفتى الزبير بن العوام، ولا الفتى طلحة بن عبيد الله، ولا خالد بن سعيد ابن العاص، ولا سعد بن أبى وقاص، ولا مصعب بن عمير الذى كان من أنهد فتيان قريش، وأخذ التعذيب يباشر فى البيوت، لحق بهؤلاء ولحق بخباب بن الأرت فى بيت أم أنمار بمكة، وبعبد الله بن مسعود بجانب البيت العتيق، وبعمار بن ياسر وأهله، فحرقت دارهم، وأخذوهم إلى رمضاء مكة ليباشر السفهاء تعذيبهم تحت وهج الشمس الحارقة بقيادة الزعيم أبى الحكم عمرو بن هشام الذى لقب فى الجاهلية والإسلام بأبى جهل. ولم يتوقف التعذيب لآل ياسر عند هذا الحد، فقتلت سمية أم عمار بطعنة نجلاء من حربة أبى جهل، ولحق بها والده ياسر بضربات غاشمة من الطاغية أبى جهل حتى فاضت روحه إلى بارئها، ولم ينج أبو بكر على مكانته وسنه من انفلتات القرشيين انتقاماً من تحريره للعبيد، حتى لم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم بداً من أن يحض أصحابه على الهجرة، ويقول لهم: «تفرقوا فى الأرض فسيجمعكم الله تعالى»... وحين سألوه، أشار بالحبشة قائلاً لهم: «إن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهى أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه».. وروى الرواة أن الهجرة الأولى للحبشة كانت فى رجب فى السنة الخامسة من المبعث، وهاجر فيها أحد أو اثنا عشر رجلاً، اصطحب أربعة أو خمسة منهم زوجاتهم معهم إلى الحبشة، وقيل إن بعضهم رجع فى شوال فى السنة نفسها بناء على أخبار كاذبة، فلما عادوا وجدوا المسلمين كالذى كانوا فيه وأشد!

ولم يرد بالروايات أن أبا عبيدة كان ضمن الفوج الأول الذى هاجر إلى الحبشة، ولم يرد أيضاً بالروايات أنه تعرض لملاحقة ثقيلة من قريش،.. على أن قريشاً

لم تهدأ بهجرة من هاجروا إلى الحبشة، وازداد سعارها بعد أن أسلم عمر ابن الخطاب بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب.

ومع تصاعد هجوم قريش وإعناتهم للمسلمين، والإغراق في إيذائهم بشتى السبل، والتضييق عليهم في حياتهم وسبل عيشهم، وملاحقتهم بالنكال والسخرية والاستهزاء، خرج الفوج الثاني من المسلمين مهاجرين الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكانت بعد عودة من عادوا من الحبشة بقليل، بعد أن لاقوا من قريش إيذاءً أشد، وكانوا ٨٣ رجلاً، و١٨ امرأة، وفيهم جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الله بن جحش ابن عمه رسول الله، وأخوه عبيد الله ومع زوجته حبيبة بنت أبي سفيان وقد تنصّر وفارقتهم هناك بالحبشة، وتزوجها الرسول وهي هناك بعدما علم بما حدث لها من تنصّر زوجها ومفارقتها له، وكان ضمن هذا الفوج أيضاً: المقداد بن الأسود، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي، وهشام بن العاص أخو عمرو، وعمار بن ياسر، وفراس بن النضر بن الحارث الذي فرّ بدينه من ملاحقة أبيه له!

وبذلك أخذ ابن الجوزي، فأورد في «صفة الصفوة»<sup>(١)</sup>، أن أبا عبيدة هاجر في الهجرة الثانية إلى الحبشة، وبذلك أيضاً أخذ الدكتور محمد حسين هيكل في حياة محمد<sup>(٢)</sup>. وأورد أن معظم الروايات تفيد أن هجرته للحبشة كانت في الدفعة الثانية، وأن هذا مستفاد أيضاً من رواية ابن إسحق، على ما سوف نعود لإيضاحه.

ومما يروى عن طغيان قريش وإمعانها في ملاحقة المسلمين، أنه بلغ من كيدها أن أوفدت عمرو بن العاص - وكان آنذاك لا يزال على الكفر - وعبد الله بن أبي ربيعة، ليدسا للمسلمين بالحبشة، ويحرضوا عليهم البطارقة والنجاشي، ويؤلبا النجاشي عليهم ليطردهم من بلاده، لولا أن طاش سعيهما لما حرص النجاشي

(١) صفة الصفوة. ابن الجوزي ١٩٢/١.

(٢) حياة محمد. د. محمد حسين هيكل ص ١٦٩.

على أن يسمع للمسلمين قبل أن يبيت في أمرهم، فلما سمع منهم وعرف حقيقة دينهم وما جاء به عن عيسى عليه السلام، بكى حتى اخضلت لحيته، وقال لمن حوله: «إن هذا والذي جاء به عيسى - ليخرج من مشكاة واحدة». والراجح أن أبا عبيدة لم يطل المكث بالحبشة، وعاد إلى مكة قبل الهجرة إلى المدينة، وبقي بصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة. يرجح ذلك أن معظم المصادر والمراجع لم تذكر اسم أبي عبيدة ضمن من بقوا بالحبشة حتى هاجروا منها مباشرة إلى المدينة بعد هجرة رسول الله إليها. مما يؤكد أنه عاد إلى مكة، والراجح عكس ما ارتأى البعض - أنه بقي بمكة حتى أذن له بالهجرة منها إلى المدينة، قبل قليل من هجرة الرسول عليه السلام إليها وفي صحبته أبو بكر الصديق.

على أنه أيًا كان الأمر في الترتيب الزمني للهجرة إلى المدينة، وهل كان ذلك من الحبشة مباشرة إليها أم بعد دعوته إلى مكة ثم منها إلى المدينة، فإن المقطوع به أنه كان بالمدينة من باكورة وصول النبي ﷺ إليها، وحضر المؤاخاة، بين المهاجرين والأنصار، وأخى الرسول ﷺ بينه وبين الأنصاري أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري النجاري في رواية، وعلى مثل ذلك ابن الأثير في أسد الغابة<sup>(١)</sup>، بينما أورد الشامي في سبل الهدى والرشاد<sup>(٢)</sup> - أن هذا هو ما أورده البخاري بأوائل كتاب البيوع، إلا أن يكون قد آخى بين أبي عبيدة وسعد بن معاذ، وعاد الشامي وأورد أن المؤاخاة كانت مع سعد بن معاذ وقيل محمد بن سلمة<sup>(٣)</sup>.

ومعظم المصادر تشير إلى أن المؤاخاة كانت مع سعد ابن معاذ، ذكر ذلك ابن سيد الناس في السيرة النبوية (عيون الأثر)<sup>(٤)</sup>. وهو ما أورده ابن هشام

(١) أسد الغابة لابن الأثير ١٢٩/٣.

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد. محمد يوسف الصالحى الشامى ٥٢٧/٣.

(٣) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد. محمد يوسف الصالحى الشامى ٢٩٨/١٢.

(٤) عيون الأثر في السيرة النبوية. ابن سيد الناس - ٢٦٦/١.

فى سيرته نقلًا عن ابن إسحق<sup>(١)</sup>، وعلى ذلك ابن كثير فى صفوة السيرة<sup>(٢)</sup>، وابن عساکر فى تاريخ دمشق<sup>(٣)</sup>، كما أكد أن المؤاخاة كانت مع سعد بن معاذ: الذهبى فى تاريخ الإسلام<sup>(٤)</sup>، والعسقلانى نقلًا عن الواقدى فى الإصابة فى معرفة الصحابة<sup>(٥)</sup>. وكذلك فى السيرة الحلبىة للشامى كما تقدم<sup>(٦)</sup>، وهو ما أخذ به عبد الرحمن عميرة فى كتابه: «رجال ونساء أنزل الله فىهم قرآنًا»، وورد بالطبقات الكبرى<sup>(٧)</sup>، أن أبا عبيدة نزل بالمدينة على كلثوم بن الهدم.

على أن هذه الروايات، مع ترجيحنا أن المؤاخاة - طبقًا لمعظم المصادر - كانت مع سعد بن معاذ، إنما تؤكد أن أبا عبيدة بن الجراح كان موجودًا بالمدينة فى وقت باكر جدًا يكاد يلازم وصول الرسول عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبى بكر إليها. وجدير بالذكر أن ابن هشام أورد فى سيرته، نقلًا عن ابن إسحق، أن أبا عبيدة كان فىمن عادوا إلى مكة بعد أن بلغهم الخبر الكاذب عن إسلام قريش، مع أنه لم يورد اسم أبى عبيدة ضمن الأحد عشر مهاجرًا الذين هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة، وباستقراء ما أورده ابن هشام فى السيرة<sup>(٨)</sup>، استبان أن سبب هذا الخلط أن ابن هشام بعد أن نقل عن ابن إسحق أسماء الأحد عشر مهاجرًا الذين هاجروا الهجرة الأولى إلى الحبشة، ولم يذكر أبا عبيدة بن الجراح منهم.. استطرده متابعًا لابن إسحق، قائلًا: «ثم» خرج جعفر بن أبى طالب ومعه زوجته أسماء بنت عميس، وتابع بيان أسماء من هاجروا فى الهجرة الثانية، وأحصى

(١) السيرة النبوية. ابن هشام ١٢٤/٢ - ط دار الشعب.

(٢) صفوة السيرة - ابن كثير ١٥٨/٢.

(٣) تهذيب تاريخ دمشق الكبير - ابن عساکر ١٦١/٧.

(٤) تاريخ الإسلام - المغازى - شمس الدين الذهبى ص ٢٧٢.

(٥) الإصابة فى تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلانى حرف العين - القسم ١ - ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٦) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد. محمد الصالحى الشامى ٥٢٧/٣، ٢٩٨/١٢.

(٧) الطبقات الكبرى. ابن سعد ٢٩٨/٣.

(٨) سيرة النبى. ابن هشام ٣٤٤/١. ط دار الشعب.

أن عددهم ثلاثة وثمانون رجلاً. وأسمائهم مختلفة عن الأحد عشر اسماً الذين ذكر هجرتهم الأولى، دون أن يسبغ على هذه المجموعة أنها الهجرة الثانية إلى الحبشة، ربما بسبب أن هجرتهم كانت بعد قليل من عودة من عادوا من الحبشة في شوال من السنة الخامسة من المبعث. وأدى ذلك إلى «اندماج» الأسماء دون فاصل واضح اكتفاءً بأداة العطف «ثم» مشمولة بكلمة هاجر<sup>(١)</sup>.

ولكن الفاحص يستطيع بسهولة أن يميز بين المهجرتين إلى الحبشة، فعدد الفوج الأول ١٠ أو ١١ من الرجال. والفوج الثاني ٨٣ من الرجال، وأسماء من هاجروا في الفوج الأول، تختلف عن أسماء من هاجروا في الفوج الثاني، وقد أدى هذا «الدمج» إلى الاعتقاد الخاطئ بأن عودة أبي عبيدة من الحبشة كانت بمناسبة ما وصل الحبشة من خبر خاطئ عن إسلام قريش<sup>(٢)</sup>. ولم يلاحظ من اعتقدوا ذلك، أن أبا عبيدة لم يكن أصلاً في الفوج الأول، ولم يذكر اسمه ضمن المهاجرين الذين أوردتهم ابن هشام وغيره بأسمائهم، وأنه لم يهاجر إلى الحبشة إلا في الفوج الثاني مع جعفر بن أبي طالب ومن ذكرنا بعض أسمائهم سلفاً، ومن ثم فإن الصحيح أن عودته إلى مكة، لم يكن لها صلة بما وصل من نبأ خاطئ إلى الفوج الأول عن إسلام قريش، وإنما عاد أبو عبيدة إلى مكة بعد هجرته منها مع الفوج الثاني، حيث بقى بمكة - حسب الراجح - إلى أن هاجر منها إلى المدينة، قبيل قليل من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأبى بكر إليها كما قدمنا.

على أننا نريد ألا نترك أمر هجرة أبي عبيدة إلى الحبشة، دون أن نلتفت إلى أنها كانت أقرب إلى التساند بطبع النجدة المطبوع عليها. فلم يرد في قصص ما ألم بالمسلمين من تعذيب قريش - أن أبا عبيدة تعرض شخصياً لمحنة التعذيب. فلا عذبه طواعيت قريش أو تعرضوا له مع أنه لم يكن من بطونها

(١) سيرة النبي. ابن هشام. ط دار الشعب ١/٣٥٣.

(٢) سيرة النبي. ابن هشام. ط دار الشعب ١/٣٨٨ - ٣٩١.

المنیعة وإن التقى نسبه مع الرسول علیه السلام فى فھر، ولا روى أن أباه عذبه أو غلظ له، مما یرجح أنه مات قبل ذلك، وأن قصة تعقبه لابنه أبى عبیدة فى بدر واضطرار أبى عبیدة إلى مواجهته مواجهة انتهت بقتله - هى من انتحال الرواة الذین وقعت رواياتهم فى اضطراب شديد سنعود فى حینہ إلیه، ولا تتفق رواياتهم مع ما عرف عن أبى عبیدة من لین ورقة لأهله كانا کفیلین بأن یتهرب - على الأقل - من قتل أبیه بیده!

ولکن یبقى أن آیا من المصادر، لم تورد أن أباً عبیدة تعرض لبطش أو تعذیب أو إیذاء طواغیت قریش، وتكون هجرته - والأمر كذلك مع المهاجرین إلى الحبشة - أقرب إلى التساند والمؤانسة مع بنى دینہ فى هجرتهم إلى الأرض الغریبة، یصادق على ذلك كثرة مشاهد النجدة التى تقدمت فى بیان مناقبه، وهى التى دعتہ إلى أن یراجع عمر بن الخطاب فى عدوله عن دخول الشام لطاعون عمواس، ویقول له: «أفراراً من قدر الله یا عمر؟».. إلى آخر القصة، ولكن صورة هذا التساند والتکافل تبدو واضحة کفلق الصبح حین أبى أن یتربک جنده بالشام ویلحق بالمدينة تلبية لأمر أمير المؤمنین عمر الذى خشى علیه - لمنزلته الکبيرة فى الإسلام - من وباء الطاعون، فکتب إلى عمر بیدى له أنه فى جند الله من المسلمین، لا یرغب بنفسه عنهم، ویطلب إلى أمير المؤمنین أن یحله من عزمته، مؤثراً أن یبقى بین جنوده، حتى بکی عمر حین استقبل الکتاب، فلما سُئل: أ مات أبو عبیدة؟ قال: لا! وكأن قد. وهو ما حدث حین مات هذا الغیاث الأمين بالطاعون وسط جنوده بالشام الذین آثر أن یبقى وسطهم ویتساند معهم. هاجر أبو عبیدة من مكة إلى الحبشة، دون أن یوجد ما یضطره شخصياً إلى الهجرة، وإنما هاجر انسياقاً مع طبعه وشیمه، وتسانداً مع إخوته المسلمین فى هجرتهم إلى هذه الأرض الغریبة.

وخلال ذلك، فإن المراجع لروایاته عن النبى، وحسن رأیه ﷺ فیہ، یدرك أنه ظل ملاصقاً له فى مكة، یهتدى بهدیہ، ویعترف من نبعه ما أهله للدور العظیم

الذى أداه فى رحاب الإسلام منذ انتقلت الدعوة إلى المدينة، وظل يؤديه بعد وفاة  
النبي عليه السلام، وإلى أن توفى هو بالشام فى السنة الثامنة عشرة للهجرة.

\* \* \*

## المجاهد في رحاب النبوة

أصدق وصف يوصف به أبو عبيدة، إلى جوار «أمين الأمة»، أنه من كبار المجاهدين في الإسلام، بدأ جهاده في سبيل الدعوة منذ أسلم ضمن العشرة الأوائل الذين أسلموا وبايعوا الرسول قبل الدخول إلى بيت الأرقم بن أبي الأرقم. وكان مجرد دخول الإسلام في ذلك الوقت، جالبًا للمخاطر التي تثيرها عداوة قريش التي شنفت للدعوة وللرسول ﷺ وكل من يتجرأ على الإيمان بها.. وقد مر بنا أن صنوف العذاب الرهيب التي لاحقت العبيد والأشراف، وتحملها المسلمون في صبر وجلد، دعت النبي ﷺ إلى أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة، بترك البلد والديار والأهل، والعيش في الأرض الغريبة على الجانب الآخر من البحر الذي عبره المهاجرون لأول مرة، كانت معاناة تحملها المهاجرون، وكان من بينهم المجاهد أبو عبيدة بن الجراح، الذي هاجر في الفوج الثاني البالغ ٨٣ رجلاً.. وتحملوا إلى جوار الغربية، مؤامرات قريش التي لاحقتهم هناك، بسفارة عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة إلى الحبشة، لتأليب البطارقة والنجاشي عليهم، وحض النجاشي على طردهم من بلاده، لولا سماعه للمسلمين، واقتناعه بفساد مزاعم سفيري قريش إليه.

كانت حياة المسلمين في مكة جهادًا ومجاهدة لمواجهة طغيان قريش وإبذائها، وكانت في المهجر جهادًا ومجاهدة للغربة والانقطاع عن الوطن والديار.. احتملها أبو عبيدة كما احتملها غيره من المسلمين.

وبانتقال المسلمين بالهجرة إلى المدينة، بدأت مرحلة أخرى من الجهاد والمجاهدة، ببناء حياة جديدة بعد أن ترك المهاجرون وراءهم دورهم وأموالهم وهاجروا بأنفسهم إلى الله. ولكن اليهود كانوا بانتظارهم بمؤامراتهم ووسائلهم في المدينة، برغم العهد الذي أعطاه الرسول ﷺ إليهم، بينما قريش ومن والاها

من العرب من خلفهم. وبدأت مؤامرات اليهود ودهسهم من اليوم الأول لوصول الرسول عليه السلام المدينة، ويقول الرواة: إن الحصين الذي أسلم وعرف باسم عبد الله بن سلام، كشف للرسول حقيقة قوم اليهود، حين سألهم عليه السلام عن الحصين قبل أن يعرفوا أنه أسلم، فقالوا: إنه من خيارهم وأعلمهم، فلما خرج إليهم الحصين، وأعلن لهم إسلامه، عادوا فشجبوه بالكذب ونعتوه بأنه من أشرقومه وابن أشرهم، فقال ابن سلام للنبي: «ألم أخبرك يا رسول الله بأنهم قوم بهت.. أهل غدر وكذب وفجور»؟!

وبرغم أن الرسول ﷺ سالمهم ووادعهم، فإنهم جعلوا يتآمرون عليه وعلى المسلمين، وجعل أحبارهم يجادلون الأوس والخزرج عسى أن ينجحوا في إثنائهم عن مناصرة الدعوة، وفي بعض ما يدبرون، نزلت الآيتان: ٨٩، ٩٠ من سورة البقرة، وذهب أحبارهم يريدون تعجيز النبي بسؤاله عن خمسة أشياء قدروا أنه لن يستطيع الإجابة عنها، فلما أجابهم وأسقط في يديهم، افتعلوا أن جبريل عدوهم فهو ينزل بالشدة والغلظة، وأن محمداً لو قال ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والمطر لاتبعوه!

وتتابعت مؤامرات اليهود ودهسهم، واتفقوا للتخلص من موادة الرسول وعهده لهم، أن يواعدوه جهراً، ويكيدوا له سراً.. واستمرءوا حملات ظاهرها البراءة وباطنها النفاق والتنكيل، وجعلوا يأترون لتحريك القارات بين الأوس والخزرج بتذكيرهم بيوم بعث الذي كانوا قد اقتتلوا فيه - في الجاهلية - قتالاً شديداً، وكاد اليهود يفلحوا، وتنادى الخزرجيون والأوسيون بالسلح، لولا أن حال النبي ﷺ بينهم وبين الاشتباك. وقال لهم: «يا معشر المسلمين الله الله! أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! بعد إذ هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية.. واستنقذكم به من الكفر، وألف بينكم؟! ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً»؟! يومها نزلت الآيات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ

وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُونُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٠ - ١٠٣]، ووقى الله المسلمين شر هذه الفتنة التي أشعلها اليهود.

لم يتوقف اليهود عن لجاجتهم وتآمرهم، ووجدوا في المنافقين بالمدينة معيناً على ما يذبرونه للإسلام، وجعل حُيَيُّ بن أخطب وشقيقه أبو ياسر- يجدان في تخذيل الناس وردهم عن الإسلام، وطفق شاعرهم كعب بن الأشرف ييرصف أشعاراً في هجاء النبي ﷺ، وأخذوا يحرضون الأنصار على المهاجرين، ويستعينون بالمنافقين ليندسوا في المسجد للعبث والتشويش على المسلمين.. ولكن المسلمين صمدوا لكل هذه الأفاعيل، وجاهدوا اليهود والمنافقين بالصبر والحلم.. باقين على عهدهم في حسن الجوار ومعاملة الجميع بمن فيهم اليهود بالحسنى. على أن ما واجهه المسلمون بالمدينة، من تحالف اليهود والمنافقين عليهم، وافتعال الأسباب لتخذيلهم، كان والمسلمون مهديين من قريش ومن والاهما من خلفهم، يعانون ولا شك في مجاهدتهم، من تجرؤ قريش عليهم بعد أن ألجأتهم إلى الهجرة تاركين ديارهم ومتاعهم وأموالهم. وأنه من ثم لم يكن للمسلمين غناء إزاء هذا المحيط المعادى لهم، من كفالة الأسباب لبث الاحترام لهم وعدم استضعاف شأنهم، حتى لا يزداد تغول هؤلاء المتغولين عليهم، وحتى يُتاح للدعوة أن تصل إلى الناس بلا خوف أو رعب من تبعات الإيمان بالإسلام.

وهذا في اعتقادي هو سبب خروج السرايا من المدينة في العام الأول للهجرة، فقلة تعداد الخارجيين في هذه السرايا، يدل على أنها كانت في الغالب لإثبات الوجود، وبث الهيبة. فبعثة حمزة بن عبد المطلب إلى شاطئ البحر من ناحية

العيص، كانت في ثلاثين راكبًا من المهاجرين، وهي وإن التقت مصادفة أبا جهل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فإنه لم يحدث بين الفريقين قتال. وبعثة عبيدة بن الحارث إلى ماء بالحجاز بوادي راغب، كانت في ستين راكبًا من المهاجرين، وهي وإن صادفت جمعًا من قريش يزيد على المائتين على رأسهم أبو سفيان، فإن البعثة انصرفت بغير قتال، إلا ما روى من أن سعد بن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم فعد أول من رمى بسهم في الإسلام. وبعثة سعد ابن أبي وقاص إلى أرض الحجاز، كانت في ثمانية من المهاجرين على رواية، وفي عشرين منهم على رواية أخرى، وقد عادت بدورها دون قتال.

وهذا يحمل على الاعتقاد بأن خروج هذه السرايا قليلة العدد، لم يكن إلا بهدف إثبات الوجود وبث الهيبة ورد الكفار من قريش وغيرها عن الاجتراء على المسلمين بالمدينة، ومهاجمتهم المسلمين مدفوعين بتآمرات اليهود والمنافقين، وهي أخبار لم تكن بمعزل عن قريش التي كانت لها صلات وسفارات مع يهود المدينة. وتروى الروايات، أن أول خروج للنبي ﷺ بنفسه، كان بصفر أول السنة الثانية للهجرة، أي على رأس اثنى عشر شهرًا من مقدمه إلى المدينة في ربيع أول من العام الأول للهجرة، وقيل إنه سار إلى «الأبواء» حتى بلغ «ودان»، وأنه كان يريد قريشا وبنى ضمرة، فلم يلاق قريشا، ووادع بنى ضمرة على ألا يغزوه ولا يغزوه، وألا يكثروا عليه جمعًا، ولا يعينوا عليه عدوًا، وكتب بينه وبينهم كتابًا بذلك. وجاء بالكتاب، بعد البسملة: «هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصرة على من رامهم إلا أن يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفة (أي ما دام في البحر ما يببل الصوفة). وأن النبي ﷺ إذا دعاهم لنصره أجابوه، عليهم بذلك ذمة الله وذمة رسوله، ولهم النصر على من برّ منهم واتقى».

وورد أنه في ربيع الأول وقيل ربيع الآخر، على رأس ثلاثة عشر شهرًا من الهجرة، خرج النبي ﷺ في نحو مائتين من المهاجرين والأنصار إلى «بواط»،

يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص، واستخلف على المدينة سعد بن معاذ، وفاتته قافلة لقريش عليها أمية بن خلف ويحميها مائة محارب، وعاد بلا قتال، وخرج بعد ثلاثة أشهر في جمادى الآخرة، وقيل الأولى، سنة ٢هـ في نحو مائتين وخمسين، فبلغوا «العُشَيْرَةَ» ببطن ينبُع، وأورد الإمام الصالحى الشامى فى سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد<sup>(١)</sup>. ط الأوقاف - أن النبى ﷺ أقام فى العُشَيْرَةَ بقية جمادى الأولى، وليالى من جمادى الآخرة، ووادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة، ورجع إلى المدينة دون أن يلقي كيداً. إلا أنه ما كاد ﷺ يرجع إلى المدينة، حتى أغار كُرُز بن جابر الفهري، من المتصلين بمكة وقريش، على سَرَح المدينة - أى الإبل والمواشى التى تسرح للرعى، وكانت ترعى بالجماء ونواحيها، فخرج الرسول ﷺ فى أعقاب هؤلاء المغيرين عن المدينة، واستخلف عليها زيد بن حارثة، وتابع مسيره حتى بلغ وادياً يقال له «سَفَوَان» من ناحية بدر، فلم يدركه، وعاد ومن معه دون أن يلقوا كيداً. وأنت ترى من قلة تعداد من خرجوا فى هذه السرايا، أن القتال لم يكن بغيتها، وأنها من ثم كانت أقرب إلى إظهار الهيبة وإثبات الوجود، وأنها عادت جميعاً بلا قتال، وأن بعضها نجح فى عقد موادعات مع القبائل المحيطة بالمدينة، كالذى حدث فى «ودان» مع بنى ضمرة، وما عُقِدَ مع بنى مدلج وحلفائهم فى «العُشَيْرَةَ»، وتتضح حكمة هذه الغاية وأن ذلك كان مطلوباً لتأمين الإسلام والمسلمين بالمدينة، من الغارة التى شنها كُرُز بن جابر الفهري على إبل المدينة، وقد كان هذا المغير من المتصلين بمكة وقريش، مما يؤكد أن قريشاً لم تكن بمعزل عن التآمر على المسلمين بمهجرهم، وأن هذا التجرؤ وصل إلى حد الإغارة واستلاب المواشى والإبل التى كانت بمرعى المدينة.

(١) سبل الهدى والرشاد - ٢٩/٤.

## غزوة بدر

على أن هذه الإغارة نبهت المسلمين إلى أن مجاهدة هذه المؤامرات، تستوجب مزيداً من المجاهدة والجهاد، فلم ترعو قريش، ولم تقنع بخروج المهاجرين تاركين دورهم ومتاعهم وأموالهم من خلفهم في مكة، ولم يرضهم أن يستمر تقدم الدعوة، وانتشارها حثيثاً في المدينة وما حولها، بل وفي مكة التي احتجرت قريش فيها بعض من أسلموا ومنعتهم من الهجرة، بل أكرهت بعضهم على الخروج لقتال المسلمين في بدر. هناك صار قتال هؤلاء الظالمين الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم لا لشيء إلا أن قالوا ربنا الله. وقد نزل في ذلك قول الحق جل وعلا: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠].

وبعد أيام من إخفاق مطاردة المغير كرز بن جابر الفهري والمغيرين معه على المدينة، تقاطرت الأنبياء عن غيوم تتجمع وتدابير تحاك، فأراد النبي ﷺ أن يطمئن على ما عساه أن يكون جارياً بين القبائل بزعامة قريش، فانتدب عبد الله بن جحش من رثاب الأسدي، للخروج في اتجاه مكة في ثمانية من المهاجرين، حاملاً كتاباً أمره رسول الله ﷺ ألا ينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين، فلما نظر فيه في الموعد المضروب، تلا لأصحابه ما فيه، وهو أن يمضي بمن معه حتى ينزل نخلة بين مكة والطائف، ليرصد قريشاً ويتسقط أخبارها، ولم يأمرهم بقتال، وأكد عليه ألا يستكره أحداً على المسير معه، ومضوا جميعاً إلى حيث أمر الرسول، وفي الطريق فات الركب سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بسبب تفقدتهما بعير شرد لهما. وفي موضع نخلة، اكتشف عبد الله ابن جحش وبقية أصحابه عيراً لقريش عليها عمرو بن الحضرمي، وتناوش

الجانبان، وكان شهر رجب قد حل، وهو من الأشهر الحرم، فضلاً عن أن النبي ﷺ لم يأمرهم بقتال، ولكن جرت الأحداث على غير ما اتفقا، وتبادل الطرفان الرمي بالسهم فأصيب عمرو بن الحضرمي. ووقع عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان في أسر المسلمين، فلما عادوا إلى المدينة بما حدث، غضب النبي ﷺ غضباً شديداً، وقال لعبد الله بن جحش: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام!» وصار عبد الله وصحبه في كرب شديد، وفي ذلك نزلت الآية ٢١٧ ثم الآية ٢١٨ من سورة البقرة.

وجاءت الأخبار بأن قريشاً أسرت سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان، وأرادت افتداء أسيريهما، ولكن النبي ﷺ صمم على وصول صاحبيه قبل إطلاق الأسيرين، خشية غدر قريش، فلما وصل سعد وعتبة بعد أن فكت قريش أسرهما فداءً لأسيريهما، أطلقهما المسلمون، بيد أن أحدهما: الحكم بن كيسان، تغشاه نور الإيمان، فأسلم واختار الإقامة إلى جوار رسول الله ﷺ في المدينة.

كانت هذه وما سبقها، مقدمات غزوة بدر، وقيل إن عاتكة بنت عبد المطلب رأت في المنام رؤيا استعظمت ما رآته فيها من مشاهد، وأوجست خيفة وشرًا من قريش لو علمت بأمرها وما تنبئ عنه، فأرسلت في طلب أخيها العباس بن عبد المطلب، ولم تروها له إلا بعد أن عاهدها ألا يفشيها، ولما سمعها طلب إليها هو الآخر أن تكتمها، لأنها إن بلغت قريشاً فستؤذيهم، ولكن العباس عاد فلم يستطع كتمان الرؤيا، وأسرَّ بها إلى الوليد بن عتبة، فانطلق بها الوليد إلى أبي جهل ورهط من قريش، بينما شعر العباس بالندم ولكن بعد فوات الأوان!

ذكرت لك هذه الرؤيا، لأنها وردت بتفاصيلها في كتب السيرة، وأثارت قريشاً، فتحفزت لبني هاشم، وفي هذا الجو المتوتر نظر المكيون فشاهدوا مضم ابن عمرو الغفاري، واقفاً على بعيره ببطن الوادي وقد جدَّعه وحوَّل رَحْله، وشق قميصه، ينادى: يا معشر قريش يا آل لؤي بن غالب، اللَّطيمة اللَّطيمة، أموالكم

مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه. لا أرى أن تدركوها. الغوث  
الغوث، ما أرى أن تدركوها!

وأعود إلى واقعة سرية عبد الله بن جحش في نخلة، أو ما أطلق عليه بعض  
الرواة والمؤرخين اسم: «بدر الأولى».. كانت هذه الواقعة مقدمة لغزوة بدر الكبرى  
التي وقعت في رمضان للسنة الثانية من الهجرة.. فقد نزلت في واقعة نخلة -  
الآية ٢١٧ من سورة البقرة، تؤكد النهي عن القتال في الشهر الحرام.. ثم تصرح  
بالإثم الكبير الذي وقع بإخراج أهل المسجد الحرام.. تعنى المهاجرين - عنوة من  
بلدهم، وأن هذا الإخراج أكبر عند الله، وأن الفتنة أشد من القتل، وأن الكفار  
لا يزالون يفتنون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا، تقول الآية  
الكريمة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَفِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ  
اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ  
مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَبِّلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ  
مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

أما مقدمات أحداث بدر، فقد رأيت ما كان من صياح ضمضم بن عمرو  
الغفاري في الصورة المهيجة التي ظهر بها في بطن الوادي، واستبان أن أبا  
سفيان هو الذي حرضه على ذلك وبعث به بعد أن بلغه خروج المسلمين من  
المدينة، وخاف أن يعترضوه في أوبته بعد أن ربحت تجارته بالشام. فاستأجر  
ضمضمًا وبعثه مسرعًا إلى مكة ليستنفر قريشًا.. وسرعان ما اجتمع إليه كبار  
القرشيين بمنتهادهم بظاهر الكعبة، ولما سأله أبو جهل عن شق قميصه من  
الأمم والخلف، وقطع أذنى بعيه وجدع أنفه، أجابه بأن أبا سفيان أمره بأن  
يفعل ذلك وأن يلحق بقريش على هذا الحال ليستنجدوا لتخرج إليه.. فسرت  
الحمية في كبار القرشيين وفي مقدمتهم أبو جهل وسهيل بن عمرو وأمية

ابن أبي الصلت وحنظلة بن أبي سفيان وزمعة بن الأسود وغيرهم، بينما استعظم آخرون أن يجروا محمد على التعرض لقافتهم، واستنكروا حدوث ذلك، وطلب بعضهم الاستيثاق مما يقوله ضمضم، حتى سرى بين بعض القرشيين من يقول: «واللات والعزى لقد آذيناهم وأخرجناهم وأخذ من أخذ ما خلفوه وراءهم جبراً من أموالهم.. لم يكفنا أن أجبرناهم على ترك بلدناهم وبيوتهم، ولكن لاحقناهم وألبنا وضيقنا عليهم!.. وهم هناك في فقر وعوز وضنك.. يكادون يتكفون الناس بينما أموالهم محتججة هنا في مكة!»!

وسرعان ما سخر العتاة واستهزأوا بمن مالوا إلى السلم، واقترح آخرون أن يستقسموا بالأزلام، فانبرى ضمضم معترضاً بأن أبا سفيان أوصاه: إذ قدمت على قريش فقل لهم لا تستقسموا بالأزلام!

وبعد أن كثر الهرج والمرج، غلب تحريض المحرضين على الخروج؛ وانطلق القرشيون يتجهزون لذلك، ويعايرون من يتباطأ، حتى ذهب عقبة بن أبي معيط يعرض بأمية بن خلف ويهزأ به في صحن الكعبة، لأنه أزمع القعود لكبر سنه وثقل وزنه وضخامة حجمه، فحمل إليه عقبة مجمرة فيها نار ومجمر (بخور)، ووضعها بين يدي أمية وجعل يقول له: يا أبا علي استبخر (تبخر!) فإنما أنت من النساء! فكان أن أكره أمية إكراهاً على الخروج وهو يقول لعقبة وأبي جهل الذي انضم في معايرته له: قبحكما الله.. وقبح ما جئتما به!!

خرجت قريش، إلا أن أبا لهب قد بعث مكانه العاص أخا أبي جهل، ولم يخرج أحد من بني عدى بن كعب.. وقيل إن هناك من ذهبوا إلى أبي لهب يستنفرونه للخروج، ويلحون عليه، حتى اضطر لانتداب العاص بن هشام - وكان مديناً له بأربعة آلاف درهم، أسقطها عنه ليخرج مع قريش بدلا منه<sup>(١)</sup>.

ويقال إن رهطاً من قريش على رأسهم أمية بن خلف وعتبة بن ربيعة، وأخوه شيبه، وحكيم بن حزام، استقسموا بالأزلام، فخرج القدح الناهي عن الخروج،

(١) تاريخ الإسلام (الغازي) للذهبي. ص ٣١.

فأجمعوا أمرهم على البقاء. لولا أن لحق بهم أبو جهل معترضاً ومستنقراً، بينما تكفل سهيل بن عمرو بأمر زمعة بن الأسود قائلاً له: امض عنك أيها الرجل، ما أكذب من هذه القداح!

ويقال إن بعض القرشيين قال لأبي جهل: «يا أبا الحكم، إنك تعلم ما بيننا وبين بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة من دماء.. وأنا نخشى إذا خرجنا لقتال محمد أن يأتونا من خلفنا! وانضم إلى هذا الرأي عتبة بن ربيعة، فجعل يقول: «يا معشر قريش، إنكم وإن ظفرتم بالذى تريدون، فإننا لا نأمن على من تخلف، إنما تخلف نساء وذرية، ومن لا قدرة له، فارتأوا آراءكم!»

ذكرت لك تفاصيل بعض ما جرى بين قريش، التي تفرقت أشتاتاً، فخرج بعض من خرجوا - متأففين على مضمض، وآخرون تشدهم أثقال إلى الخلف، إلا أنهم لم يعد أمامهم إلا ما ليس منه بد، وهو الخروج الذى لا حيلة لهم فى تفاديه إزاء تحريض أبى جهل ومن جرى مجراه!!

كان هذا هو الفارق بين القرشيين، والمسلمين الذين خرجوا بعقيدة قوامها الإيمان والتوحيد واليقين، والثقة بالله وبالحق الذى هم عليه، وبالظلم الذى تعرضوا له حتى أكرهوا إكراهاً - بالطغيان والجبروت - على ترك بلدهم وديارهم ومتاعهم وأموالهم. والانتقال مكرهين إلى المدينة التى لاقاهم أهلها من الأنصار بالترحاب والإيناس والعون والمدد والمساندة، على نقيض ما فعله بهم قومهم وبنو جلدتهم من قريش، وبنو بلدهم من أبناء مكة الذين تظاهروا مع كفار قريش عليهم! يقول الرواة: إن رسول الله ﷺ خرج والمسلمون من المدينة لثمان خلون من رمضان من السنة الثانية للهجرة (تقابل نحو ٣ أو ٤ مارس سنة ٦٢٤ م) فى نحو خمسة وثلاثمائة رجل.. منهم ٨٣ من المهاجرين، فيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى أجمعت الروايات أنه حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، و٢١٢ من الأنصار (٦١ من الأوس و ١٥١ من الخزرج). وليس معهم سوى سبعين بغيراً يتبادلون الركوب عليها وسوى ثلاثة أو أربعة أفراس.

لم يكن في المسلمين الذين خرجوا، حَدَثٌ ولا مريض ولا منافق ولا مزعزع، فقد كفى المنافقون أنفسهم بالقيود، ورد النبي ﷺ من استصغر سنه من أبناء المسلمين، لم يقلت منهم سوى عُمَيْرُ بن أبي وقاص الذي رَقَّ النبي لبكائه فأجازه.. وأراد من يدعى حُبَيْب بن إسان، وكان ذا بأس ونجدة، أن يخرج مع المسلمين، ولم يكن قد أسلم، بيد أن النبي ﷺ رده وقال له: «لا يصحبنا إلا من كان على ديننا».. فيؤخذ الرجل بهذا النهج النبوي. فيسلم ويشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وخرج مسلماً مع المسلمين. ولم يترك رسول الله ﷺ وراءه بالمدينة، سوى عمرو بن أم مكتوم للصلاة بالناس، وردَّ أبا لبابة بن عبد المنذر من الروحاء ليكون عاملاً على المدينة، وأذن لعثمان بن عفان بالبقاء ليمرَّض ويرعى زوجته رقية بنت محمد ﷺ التي كانت مريضة مرضاً شديداً، توفيت به ودفنت يوم وصول الرسول ﷺ والمسلمين عائدين من بدر.

مرَّ المسلمون في رحلتهم على بئر أبي عتبة بجنوب المدينة، ثم بيدر السقيا حيث استسقوا، ثم مروا عبر الصحراء على «ذى الحليفة» ثم على «تُربان» فنزلوا عند «سجسج» - وهو بئر الروحاء، ثم ارتحلوا عنها حتى إذا كانوا بالمنصرف (المسيجيد) - تركوا طريق مكة ببسارهم، وسلكوا ذات اليمين على «النازية» يريدون بدرًا، حيث نزلوا بعد مضيق «الصفراء» (قرية صغيرة بين جبلين) بوادي «دَفِران».. وهناك أتت العيون بأن قريشا قد خرجت عن بكرة أبيها، بقضها وقضيضها لقتال النبي والمسلمين، وأن عدتهم أضعاف عدد المسلمين.

هنالك جمع الرسول ﷺ المسلمين ليروا رأيهم، فقال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله، إنها قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، ولا أمنت منذ كفرت، والله لتقابلنك، فأهب لذلك أهبتة، وأعد لذلك عدته».

وقال المقداد بن عمرو، من الأنصار: «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون.. ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، فوالذي

بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك «الغَمَاد» (موضع باليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه».

ونهض سعد بن معاذ، زعيم الأنصار، فقال: «يا رسول الله، قد آمننا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً.. إنا لصُبر في الحرب، صدق في اللقاء، فنحن عن يمينك وشمالك. وبين يديك وخلفك».

مضى الرسول ﷺ بأصحابه راضياً وهو يقول لهم: «إن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين.. والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم!.. تابع المسلمون مسيرتهم في اتجاه بدر، ممعنين في البعد عن طريق المدينة المعتدل المعتاد.. فسلخوا «ثنايا الأصافر»، ومنها إلى بلد يقال لها «الدبّة»، فيتركون «الحنان» بيمين - وهو كثيب عظيم كالجبل - وينزلون على مقربة من بدر.

على ماء بدر كان هؤلاء المجاهدون، وعلى رأسهم الهادي البشير ﷺ. وفيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح مع من خرجوا من المهاجرين والأنصار، قد قطعوا مسافة تصل إلى قرابة مائتي كيلو متر أخذاً في الاعتبار الطرق المتعرجة التي سلخوا لتجنب الطريق المعتدل المعتاد. قطعوا هذه المسيرة، بصحراء قاحلة، حاملين معهم مؤنهم القليلة، سائرين على الأقدام في معظم الطريق. فقد كانت الرواحل التي يتبادلونها خُمس عددهم، فقطع الواحد منهم أربعة أخماس هذه المسافة ترجلا على قدميه، تنغرزان في رمال الصحراء بعد أن آثروا ترك الطريق المعتدل المعتاد، وخاضوا في الرمال بعيدا حتى لا تكتشف قريش طريقهم، ولا تأتيهم غيلة من خلفهم.. ويجدر بنا أن نتخيل هذه الرحلة، لنعرف إلى أي مدى كان المسير نفسه جهاداً ومجاهدة، وكم كان مقدار العناء الذي جالده هؤلاء وقد تركوا فراشهم (الخشن) في المدينة بعد أن أجبروا على ترك ديارهم في مكة،

وانطلقوا مع نبيهم ﷺ في هذه المفازات، تحت وهج الشمس الحارقة وظلام الليل إليهم، لا يبتغون شيئاً من متاع الدنيا ولا بهرجها، وإنما تمتلئ قلوبهم بالإيمان الذي ملأ حناياهم، ووحدهم حتى صاروا جميعاً بنعمة الله إخواناً، الجميع على قلب رجل واحد، وإلى غاية واحدة.

لم يكد هؤلاء المجاهدون يحطون رحالهم بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة، حتى استدعى النبي ﷺ استدعى إليه بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص وبعثهم لتنطس الأخبار، وقد عادوا إلى النبي بسلامين صادفوهما وسألوهما فظنوا أنهما يراوغان ويكذبان عليهما، ولكن النبي ﷺ أدرك بفراسته أنهما صدقا فيما أورياه، فسألهما أن يخبراه عن قريش، فأخبراه أنها وراء الكثيب (العقنقل) بالعدوة القصوى، وأن عددهم كثير، فلما سألهم ﷺ عما ينحرون.. أخبروه أنهم ينحرون في اليوم تسعاً ثم عشراً في اليوم التالي، فاستنتج النبي ﷺ من ذلك أن قريشاً بين التسعمائة والألف، وسأل الغلامين عمّن فيهم من أشرف قريش، فأخبراه أن فيهم أبا الحكم عمرو بن هشام (أبا جهل)، وعتبة ابن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبا البُختری بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل ابن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنضر ابن الحارث، وزمعة بن الأسود، وأمّية بن خلف، ونُبَيْهًا ومنبَهًا ابني الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود.

فالتفت النبي ﷺ قائلاً لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم بغلذات كبدها!» ويقول الرواة: إنه في الجانب الآخر، بمضارب قريش شمال الحجاز إلى الجنوب من بدر، استقر رأى عتبة وشيبة ابني ربيعة، على الإياب. بعد أن استعرضا الموقف، وتذكرا رؤيا عاتكة. ولم يرق لهما أن يقاتلا بنى جلدتهما، فلهما أرحام، وقراية قريبة ليست لأبي جهل الذي يتزعم التحريض على قتال المسلمين. ولم يكد أبو جهل يثنيهما عما أرادا، حتى شهدت مضارب قريش اضطراباً آخر، فقد وقف جُهَيْم بن الصلت منادياً في وجل وهلع. ليحكى ما رآه في المنام

من أن منادياً أقبل ومعه بعير ينادى بأنه قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمّية بن خلف، وآخرون من قريش.. وأنه رآه يضرب فى لبة بعيره (موضع الحبل بعنق البعير) ثم أرسله فى العسكر. فما بقى خباء من أخبية قريش إلا أصابه نُضح (تلطّيح) من دمه!

تفشى الاضطراب بين القرشيين من هذه الرؤيا المشؤمة التى صاح بها جُهيم. وذهبت بهم الظنون كل مذهب، وثار بينهم الجدل وتفرقوا أشتاتاً، حتى عاد عتبة وشيبة ابنا ربيعة إلى عزمهما الرجوع وقالا لأبى جهل: هلكت والله. وأهلكت قومك!.. ثم عادا فاستسما على مضض.. تحت الضغوط لتصاريف الأقدار! ويقول الرواة: إن الرسول ﷺ، قد نزل بأصحابه فى بدر بأقرب ماء إلى يثرب. فتقدم إليه الحباب بن المنذر الأنصارى، وكان عليماً ببدر وآبارها، فسأله: أرايت إلى هذا المنزل؟ أمّنزل أنزلك الله فليس لنا أن نتقدم - أو نتأخر - عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال ﷺ: بل هو الرأى والحرب والمكيدة. فأشار على النبى بالانتقال إلى أدنى بئر إلى القوم، وماؤها عذب وكثير لا ينزح. وأشار بأن يبنوا عليها حوضاً ليضمّنوا شرب الماء، بعد أن منعته قريش عنهم، فأخذ النبى عليه السلام بمشورته ودعا له، ونهض بالناس إلى حيث أشار.

وأورد الإمام محمد بن يوسف الصالحى الشامى فى سبيل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، المعروفة بالسيرة الحلبية - أورد (٥٣/٤) عن محمد بن عمر الأسلمى، والبلاذرى، وصاحب الإمتاع: أن قريشاً لما نزلت، بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب - برسالة مسالة تقترح أن يرجع الفريقان بغير قتال. فقال حكيم بن حزام لقومه: قد عرض نصحاً فاقبلوه، فو الله لا تنتصرون عليه بعدما عرض من النصح، فاعترض أبو جهل، وقال مهدداً ومحرضاً: والله لا نرجع بعد أن مكنا الله منهم.

ويقال: إن قريشاً بعثت عُمير بن وهب الجُمحى - وأسلم بعد ذلك - ليستطلع خبر المسلمين، فجاءهم بأنهم نحو ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون.

ثم ذهب ثانية وعاد ليضيف أنهم لا كمين لهم ولا مورد، ولكنهم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، ويرى أنه لن يموت منهم رجل قبل أن يَقتلَ رجلاً منهم. تجدد حينذاك ما كان قد نصح به الحكماء، لاسيما بعد أن وصلت رسالة من أبي سفيان يدعو فيها إلى العودة بعد أن وصل بقافلته سليماً إلى مكة، ويقال إن حكيم بن حزام قد تحدث في ذلك إلى عتبة بن ربيعة، وحضه أن يتدخل بحكمته باعتباره كبير قريش وسيدها، ليتحمل أمر حليفه عمرو بن الحضرمي الذي قتل في بعثة عبد الله بن جحش إلى نخل، وأن يذكر ذلك لأبي جهل، وكان القوم يخافون من اندفاعه وحدته ورميه إياهم بالخوف والجبن، بيد أن ذلك لم يمنع عتبة من أن يخطب في قريش، محذراً إياهم من أنهم لن يصنعوا شيئاً بقاء محمد وصحبه، وقال لهم: «والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل منكم ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته. فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون!»

بيد أن أبا جهل استشاط غضباً عندما بلغته مقالة عتبة، ودعا إليه عامر ابن الحضرمي شقيق عمرو بن الحضرمي، واستغزه وحرضه على عتبة قائلاً: «هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد مقتل أخيك». فقام عامر يصرخ: واعمره! وجعل يكررها حتى لم يعد من القتال مفر، وأعجل من صفوف قريش: الأسود بن عبد الأسد المخزومي، واندفع إلى صفوف المسلمين يريد أن يهدم الحوض الذي بنوه على الماء، فعاجله حمزة بن عبد المطلب بضربة ثم أخرى أجهزت عليه دون الحوض، وبدأ القتال بخروج عتبة بن ربيعة - ربما لدفع تهمة الجبن التي رماه بها أبو جهل - بين أخيه شيبه، وابنه الوليد، ودعا إلى المبارزة، فلما خرج إليهم أكفاؤهم فتية من أبناء المدينة، هم معاذ وعوف - ابنا الحارث، وأمهما عفراء، وعبد الله بن رواحة، اعترض عتبة وقال لهم: مالنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا. ونادوا أن يخرج إليهم أكفاؤهم من قومهم،

فخرج إليهم حمزة بن عبد المطلب، وعلى بن أبي طالب، وعبيدة بن الحارث، ولم يمهل حمزة شيبه ولا أمهل عليّ الوليد. فما لبثا أن أجهزا عليهما في كرة واحدة، ثم أعانا عبيدة بن الحارث وقد ثبت له عتبة، فلما رأت قريش ما لحق بثلاثتهم. تزاحف الناس، والتقى الجمعان صبيحة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة (نحو ١٢ أو ١٣ مارس ٦٢٤م).

ليس من أغراض هذا الكتاب. أن أروى لك تفاصيل موقعة بدر. ولم أذكر تفاصيل بعض مقدماتها، إلا لأنها الغزوة الأولى التي يجدر أن نتعرف أسبابها من مقدماتها باعتبارها منعطفًا جديدًا في مواجهة الدعوة الإسلامية لصد طغيان قريش. ومن والها من الكفار، وعنيت بذكر أسماء أشرف قريش الذين حركوا الأحداث وسيروها وانغمسوا فيها، لأناقش من واقع ذلك قصة جهاد أبي عبيدة بن الجراح وبلائه العظيم فيها. والتي أوردت مشهدًا توقفت أمامه طويلًا، يرفضه عقلي ويأباه ما عاينته من أخلاقيات ورفق ولين أبي عبيدة، وبره بأهله، وأنه يصعب - برغم صدق جهاده، وشدته على الكافرين، أن يكون قد قتل بيده أباه يوم بدر.. كما زعم بعض الرواة.

المجمع عليه أن باحة بدر شهدت صورة عظيمة من صور الجهاد وصدق البلاء، سطر فيها المهاجرون والأنصار بطولات تجل على أي وصف، لم يتناء عنها رسول الله ﷺ، مع أن أصحابه أرادوا تجنبه المخاطر محافظةً على الدعوة إن أصابه شيء، وبنى له سعد بن معاذ عريشًا ليكون فيه، بيد أنه عليه الصلاة والسلام كان في طليعة المجاهدين، ووصف الإمام علي ذلك فقال رضى الله عنه: «لما كان يوم بدر وحضر الناس، رأينا رسول الله ﷺ، فما كان منا أحدٌ أقرب إلى المشركين منه. وكان أشد الناس يومئذ بأسًا».

هذه البطولة تنبأ بها عمير بن وهب، حين وصف لقريش حال المسلمين بعد أن أرسلته لتقصي أخبارهم، فعاد يقول لقريش إنه رأى: «البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب، تحمل الموت الناقع، قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم..»

والله ما أرى أن يُقتل منهم رجلٌ حتى يقتل منكم رجلاً، فإذا أصابوا منكم مثل عددهم فما خير في العيش بعد ذلك، فروا رأيكم!»!

كان عدد القرشيين أكثر من ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، ومع ذلك انتصر المسلمون - بصدق جهادهم وقوة إيمانهم - نصرًا مؤزرًا. تفانوا من أجله، وصدقوا مع الله فصدق سبحانه وعده، استشهد منهم أربعة عشر مجاهدًا، لم يكن الأحياء أقل بطولة ممن استشهدوا، وفي الحديث: «من سأل الله الشهادة بصدق، أنزله منازل الشهداء وإن مات على فراشه».. تقول الروايات إنه ما إن سمع عُمر بن الحمام كلمات رسول الله ﷺ أن «من يقاتل مقبلاً غير مدبر، فيُقتل، إلا أدخله الله الجنة» - ما إن سمع عُمر هذه الكلمات حتى ألقى ما بيده من تمرات، واندفع إلى القتال يقاتل ببسالة حتى استشهد.. واستشهد من المهاجرين مهجع مولى عمر بن الخطاب، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب الذي جرح وقطعت ساقه في المبارزة، ونزف بشدة حتى فاضت روحه بين يدي رسول الله ﷺ، واستشهد عمير بن أبي وقاص أخو سعد، ونو الشماليين عمير بن عبد عمرو بن فضلة، وعامل بن البكير، وصفوان بن بيضاء.

واستشهد من الأنصار ثمانية: عمير بن الحمام، وعوف ومعاذ ابنا الحارث وأمهما عفراء، وحارثة بن سراقة، ويزيد بن الحارث، ورافع بن المعلّى الرزقي، وسعد بن خيثمة الأوسي، ومبشر بن عبد المنذر أخو أبي لبابة.

وقتل من المشركين، سبعون، وأسر مثلهم، منهم أبو جهل، وأمّية بن خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعبيدة بن سعيد بن العاص وكان يُكنى أبا ذات الكرش، وحنظلة بن أبي سفيان، وعامر والحارث ابنا الحضرمي، وعبيدة والعاص ابنا سعيد بن العاص، وعقبة بن أبي معيط، والحارث بن عامر بن نوفل، وزمعة بن الأسود بن عبد المطلب، وأبو البختري العاص بن هشام بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والنضر بن الحارث وغيرهم، وذكرهم ابن هشام بأسمائهم في السيرة، وكذا في السيرة الحلبية للشامي.

وهذه الخسائر التي وقعت في قريش، والتي بلغت عشرة أضعاف خسائر المسلمين، تروى صدق الجهاد الذي بذله المسلمون.. من استشهدوا ومن عاشوا، حتى انتصروا على جيش عدده وعدته أكثر من ثلاثة أضعافهم، وبلغت مع ذلك خسائره عشرة أضعاف خسائرهم، وقد كثرت الروايات في بيان بطولة هؤلاء المجاهدين الصناديد من الأنصار والمهاجرة، وذكرت فيمن ذكرت - صفحات جهاد أبي عبيدة بن الجراح.. وهو أمر ليس غريباً عليه، فسيرته كما سوف نرى ملازمة للجهاد، في حياة الرسول عليه السلام، ومن بعده، وحتى فاضت روح هذا الأمين بالشام في السنة الثامنة عشرة من الهجرة.

لا ينقص من بطولة هؤلاء المجاهدين، وفيهم أبو عبيدة، المدد الإلهي الذي تحدثت به آيات القرآن المجيد بمناسبة بدر، وإذ لا يتسع المجال هنا لاستعراض كل هذه الآيات، ومن يرد تفصيلها يجدها في المجلد الثاني من كتابنا: السيرة النبوية - في رحاب التنزيل، إلا أنه في إطار المدد الإلهي نزلت الآيات<sup>(١)</sup>:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِآلِيفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩ - ١٠].

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَىٰ وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٤ - ٤٦].

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفِيفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفِيفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٥].

(١) السيرة النبوية - في رحاب التنزيل - رجائي عطية - المجلد الثاني ص ٢٥٥ - ٣٠٠.

لقد صدق إيمان هؤلاء المجاهدين، وصدق جهادهم، فصدق الله تعالى وعده.  
وأمدهم بما تطمئن به قلوبهم ويتقوى يقينهم، وتحصنهم من ألا يدخل الغرور  
على نفوسهم بعد أن نالوا من الكفار، فقتل منهم سبعون وأسر مثلهم، وهو انتصار  
عظيم كان له أصدأه المؤثرة فى كل الجزيرة العربية.

\* \* \*

## هل قتل أبو عبيدة أباه في بدر؟!

زعم بعض الرواة، وهم ينقلون صوراً من مشاهد جهاد أبي عبيدة بن الجراح وبطولته في بدر، أنه في هذه المنجزات - قد قتل أباه عبد الله بن الجراح، حين تعرض الأب لابنه أبي عبيدة عدة مرات في ساحة المعركة. فتصدى له أبو عبيدة وقتله. وقال البعض تعزيراً لهذه الرواية إن الآية (٢٢) من سورة المجادلة. نزلت في أبي عبيدة بن الجراح بشأن هذه الواقعة.

وقد توقفت أمام هذه الرواية طويلاً، فمع أن القصة تحمل دلالة على بسالة هذا الصحابي وتغانيه من أجل الدعوة وعظمته في عيون معاصريه، فإنه لا يسهل التسليم بها بغير دليل يقيني لمن يعرف أخلاقيات أبي عبيدة، ورفقه ولينه بعامة، ورقته مع أهله بخاصة، وهي شيم لا يسهل معها أن يقتل بيده أباه، لاسيما كل ما ذكره القرآن ذاته في شأن موقف الأبناء المسلمين من آباؤهم الذين ظلوا على الشرك، تجلى في قوله سبحانه: ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥]، وليس يستقيم إذن إسناد هذه الواقعة إلى أبي عبيدة، إلا إذا قام عليها يقين مستخلص من مبررات وبراهين تنضح بأنه لم يكن لأبي عبيدة مندوحة عن ذلك، لاسيما قد أكد الواقدي أن والد أبي عبيدة، توفي قبل الإسلام. وعلى ذلك قامت أدلة استقصيتها، مثلما استقصيت مناسبة نزول الآية (٢٢) من سورة المجادلة، وباقى ما يدور حول هذه الرواية، لأقطع الشك باليقين فيها ما أمكنني ذلك.

فقد مر بنا أسماء من تصدوا من القرشيين للتحريض على الخروج لقتال المسلمين، وأسماء من أخبر الغلامان أنهم موجودون من أشرف قريش في معسكرها وراء الكتيب، وهي هي الأسماء ذاتها التي تداولتها كل المصادر عن سير المعركة، وأنت ترى أن والد أبي عبيدة لم يكن بينهم، ولو كان فيهم لذكر اسمه في أي

من هذه الروايات المتعددة، فهو عبد الله بن الجراح، من أشرف قريش، يجتمع نسبه مع النبي ﷺ في فهر بن مالك، وغير معقول أن يفوت كل المصادر ذكره في كل هذه الأحداث إن كان مشاركاً فيها، أو في بعضها، وذلك يحمل على الاعتقاد بصدق رواية الواقدي حين قال إنه مات قبل المبعث، يصادق ذلك أننا لم نجد أية رواية تنقل قبل الهجرة ما لا بد أن يدور بين الابن الذي أسلم أبيه الباقي على الشرك، لاسيما أن المصادر لم تترك كبيرة ولا صغيرة إلا أوردتها - فضلاً عن ذلك، فلم يرد اسم عبد الله بن الجراح ضمن قتلى بدر من القرشيين الذين أحصاهم ابن إسحق وابن هشام وغيرهما اسماً اسماً، مع أن ذكر أنه قتل في المعركة بيد ابنه أبي عبيدة، كفيل بذاته أن يلفت نظر المؤرخين إلى إيراده ضمن القتلى من القرشيين في بدر أو في أحد كما قالت رواية مرجوحة هي الأخرى، وأن قصة مقتله بيد أبي عبيدة قصة منتحلة، انتحلها رواة لم يتثبتوا، أو ظنوا بغير فحص أنها تسبغ بطولة على أبي عبيدة، فلم يتحرروا الدقة في التثبت منها قبل نقلها، وهي رواية ظني أنها لا تضيف إلى أبي عبيدة، فله من صفحات البطولة ما يستغنى به عن قصة مرجوحة إن لم تكن منتحلة، تتعارض مع المنطق ولا تتفق مع ما عرف عن أبي عبيدة من رفق ولين كانا كفيلين - على الأقل - بأن يتجنب قتل أبيه بيده، وأن يترك أمره لغيره من المجاهدين، وكانوا مائتين بجهادهم، باحة المعركة في بدر.

لقد نفى الواقدي هذه الواقعة، وقال إن والد أبي عبيدة مات قبل المبعث، وأورد ابن الأثير في أسد الغابة<sup>(١)</sup>، أن الواقدي ينكر هذه القصة ويقول: توفي أبو أبي عبيدة قبل الإسلام، وأضاف أن بعض أهل العلم ردوا قول الواقدي. أما سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد المشهورة بالسيرة الحلبية - للشامي، فإنها وإن تضمنت إشارة مبتسرة إلى هذه القصة، فإنها أوردت تفصيلاً أسماء من قتلوا من المشركين في بدر وأسماء من قتل منهم، ولم يرد اسم والد أبي عبيدة ضمن

(١) أسد الغابة ١٢٨/٣ ، ١٢٩ .

القتلى من قريش، ولا ورد بالتالى أن أبا عبيدة أو غيره هو الذى قتله<sup>(١)</sup>، وما كان اسم عبد الله بن الجراح، والد أبى عبيدة، ليسقط من هذا الحصر، لو كان قد قتل بيد ابنه - أو سواد - فى بدر، فهذه الواقعة لافتة من المستحيل أن تسقط من حصر أسماء القتلى من كفار قريش، ناهيك عن الأسماء التى وردت لمن قتل منهم. ويلاحظ أن ابن عساكر لم يذكر فى تاريخ دمشق<sup>(٢)</sup> سوى أن أبا عبيدة شهد بدرًا، ولم يورد أية إشارة إلى هذه القصة، بينما نجد أن شمس الدين الذهبى، وإن أشار بابتسار إلى هذه القصة فى تاريخ الإسلام - المغازى، فإنه لدى حصره أسماء قتلى قريش (ص ٩٥) - لم يورد فيهم اسم عبد الله بن الجراح، وقد كانت القصة كفيلا - لو كانت حقيقية - للفت نظره وغيره إلى إيراد اسم والد أبى عبيدة ضمن قتلى قريش فى بدر.

وبمراجعة صفوة السيرة النبوية لابن كثير<sup>(٣)</sup>، وجدنا أنه بدوره قد أورد (٢٠٧/٢) - ٢١٦ ثم ٢٢٥/٢٢٦ ط الأوقاف) أسماء قتلى قريش، ولم يرد فيهم اسم عبد الله بن الجراح، وذكر (٢٣٩/٢ - ٢٥٦) أسماء أهل بدر من المسلمين، وذكر (٢٨٤/٢) اسم أبى عبيدة بن الجراح وأنه كان أحد العشرة من المهاجرين الأولين، ولم يشر إلى هذه القصة والتى لم ترد أيضًا فى سرده لأحداث الغزوة، ولا فى كتابه: غزوات النبى (٤٩/١).. فلم ترد فيه أيضًا أية إشارة إلى هذه القصة، مع أنها قصة لافتة ويستحيل أن تسقط عدة مرات من ابن كثير إذا كانت حقيقية<sup>(٤)</sup>!

وبمراجعة مغازى الواقدي<sup>(٥)</sup>، وجدنا أنه ذكر تفصيلاً (١٤٧/١ - ١٥٢) أسماء من قتلوا من المشركين فى بدر، ولم يذكر فيهم والد أبى عبيدة بن الجراح، ولم ينسب إلى أبى عبيدة أنه قتل واحداً بذاته فى بدر، الأمر الذى يؤكد أن هذه

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ١١٥/٤ - ١١٧.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق الكبير. ابن عساكر ١٦١/٧.

(٣) صفوة السيرة النبوية لابن كثير ٢٠٧/٢ - ٢١٦ - ٢٣٩/٢ - ٢٥٦ - ٢٨٤/٢.

(٤) غزوات النبى - ابن كثير - تحقيق د. أحمد عمر هاشم وآخرين ٤٩/١.

(٥) مغازى الواقدي ١٤٧/١ - ١٥٢.

القصة منتحلة، وذلك يتفق مع ما أورده الواقدي من أن والد أبي عبيدة مات قبل الإسلام.

وبمراجعة الدر لابن عبد البر<sup>(١)</sup>، وجدناه (ص ١١٣ - ١١٧) قد استعرض أسماء من شهدوا بدرًا من المهاجرين، وذكر (ص ١١٦) أنه شارك من بني الحارث ابن فهر: أبو عبيدة ابن الجراح واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح، وعرض ابن عبد البر (ص ١١٠/١١١) لتسمية قتلى قريش في بدر وأورد اسم القتييل واسم من قتله. ولم يذكر والد أبي عبيدة ضمن القتلى، ولا ذكر اسم أبي عبيدة ضمن من قتلوا أحدًا بذاته في بدر.

وعدنا إلى العالم المدقق ابن سيد الناس في السيرة النبوية (عيون الأثر) فوجدنا أنه (١/٣٤٠ - ٣٤٨) قد ذكر تفصيلًا الاشتباكات في معركة بدر، ولم يورد أن أبا عبيدة اشتبك فيها مع أبيه أو قتله<sup>(٢)</sup>.

ومن البديهي عدم التوقف عند روايات المحدثين الذين نقلوا القصة بغير بحث ولا فحص ولا تمحيص، وإنما عدنا إلى ما ذكرناه من مصادر، وختمنا بالأصل، الممثل في رواية ابن هشام في سيرته (٢/٣٥٥ - ٣٦٤). وما نقله فيها عن ابن إسحق، فوجدنا أنهما قد أحصيا أسماء قتلى قريش اسمًا اسمًا، وأحصيا أسماء من قتلوا كلاً منهم اسمًا اسمًا، ولم يرد في هذا الحصر اسم والد أبي عبيدة ضمن قتلى كفار قريش، ولا ورد أن أبا عبيدة قتل واحدًا بعينه من قريش، لا والده، ولا سواه. الأمر الذي يؤكد أن هذه القصة منتحلة، وإلا لقام عليها دليل يمكن أن يُطمئن الباحث إلى صحتها<sup>(٣)</sup>.

وليس أدل على انتحال هذه القصة، من أن البعض عزاها إلى غزوة أحد. مع الفارق الكبير زمنيًا ومكانيًا بين بدر وأحد، هذا وبرغم أن هذه الرواية وحيدة

(١) الدر لابن عبد البر. ص ١١٣ - ١١٧، ص ١١٠/١١١.

(٢) عيون الأثر في السيرة النبوية. ابن سيد الناس ١/٣٤٠ - ٣٤٨.

(٣) سيرة النبي لابن هشام. ٢/٣٥٥ - ٢٦٤.

ضعيفة منسوبة إلى عبد الله بن مسعود، فإتى أعدت البحث فيما ثبت بالمصادر التي استعرضتها، فلم أجد أصلاً لهذه القصة، فلم أجد اسم والد أبي عبيدة ضمن قتلى قريش في أحد، ولا اسم أبي عبيدة أنه قتل أباه فيها، مع أن أخبار بطولة أبي عبيدة في هذه الغزوة مروية تفصيلاً على رأسها زوده عن رسول الله ﷺ، وقيامه بنزع حلقتي المغفر من وجهه الكريم، وسقوط ثنيتيه بسبب ذلك على ما مر بنا، وسوف نعود إليها في أحداث غزوة أحد.

هذا ونظرًا إلى أن البعض ساق تأييدًا للقصة، بغير بحث، أن الآية (٢٢) من سورة المجادلة، نزلت في قتل أبي عبيدة لأبيه في بدر، فقد عدنا إلى المصادر المعتمدة في أسباب ومناسبات التنزيل، فوجدت اختلافات تستوقف النظر، وأن الراجح أن هذه الآية غير مخصوصة بواحد بعينه. وإنما نزلت في جملة ما حدث في بدر.

فقد ذكر السيوطي، في كتابه: «لباب النقول في أسباب النزول»، أن هذه الآية، ونصها: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. ذكر أن الطبراني والحاكم في المستدرک أورداها بلفظ يقول: «جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحمي عنه، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزلت».

ولكن السيوطي، عاد ففقى مباشرة بقوله: «وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: حدثت أن أبا قحافة سب النبي ﷺ، فصكه (لطمه) ودفعه أبو بكر صكة فقط، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «أفعلت يا أبا بكر؟ فقال: والله لو كان السيف قريباً مني لضربت به، نزلت الآية»<sup>(١)</sup>.

(١) لباب النقول في أسباب النزول. السيوطي. في مناسبة نزول الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

هذا وبينما ذكر السيوطي سببين مختلفين للنزول، أحدهما عن القصة المنسوبة إلى أبي عبيدة في بدر، والأخرى عن واقعة بين أبي بكر وأبيه، فإن الواحدى فى أسباب النزول، قال إن واقعة أبى عبيدة حدثت فى أحد وليس فى بدر، مع الفارق الكبير بين الغزوتين، مكاناً وزماناً وظروفاً، والغريب أن الواحدى أضاف سبباً آخر للنزول، فقال: «إن ابن أبى بكر دعا أباه يوم بدر إلى البراز، فقال (أبو بكر): «يا رسول الله دعنى أكن فى الرعدة الأولى. فقال له رسول الله ﷺ: متعنا بنفسك يا أبا بكر أما تعلم أنك عندى بمنزلة سمعى وبصرى». هذا وهناك قصة مؤكدة فى أحد - نهى فيها النبى ﷺ سعد بن أبى وقاص عن تتبع أخيه عتبة الذى أصاب الرسول، وقال له أتريد أن تقتل نفسك؟! (وهذا يؤكد أن العبارة المنسوبة إلى الرسول ﷺ عبارة منتحلة!). هذا وقد أضاف الواحدى أن الآية نزلت أيضاً: فى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيدة بن عمير فى أحد، وفى عمر قتل خاله العاص بن هشام بن المغيرة يوم بدر، وفى على وحمزة قتل عتبة وشيبة ابنى ربيعة والوليد بن عتبة يوم بدر وذلك قوله - تعالى - ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم<sup>(١)</sup>.

وأنت ترى تناقض رواية الواحدى مع رواية السيوطى بالنسبة لأبى بكر، فقد ذكر السيوطى أن النزول كان لواقعة بين أبى بكر ووالده أبى قحافة، بينما ذكر الواحدى أنها لواقعة مبارزة بين أبى بكر وابنه يوم بدر، ثم أنت ترى أن الواحدى جمع فى بعض ما أورده، عدة وقائع معظمها يوم بدر واثنان معزوتان إلى يوم أحد، فعزا واقعة أبى عبيدة، وواقعة قتل مصعب بن عمير لأخيه عبيد إلى يوم أحد، بينما عزا وقائع مبارزة أبى بكر لابنه، وقتل عمر لخاله العاص، وكذا من أجهز عليهم حمزة وعلى فى المبارزة: عتبة وابنه الوليد وأخوه شيبة - إلى يوم بدر، بينما المتفق عليه أن الآية نزلت فى أعقاب بدر وقبل أحد، مما لا يستقيم معه الجمع بين واقعات فى بدر وأخرى فى أحد، كسبب أو مناسبة

(١) أسباب النزول للواحدى. فى مناسبة نزول الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

لنزول آية نزلت في أعقاب بدر وقبل أُحُد، وهذا يسرى بدهاءة على الواقعة المنسوبة لأبي عبيدة التي عزاها الواحدى إلى يوم أُحُد، بينما نزلت الآية بعد يوم بدر وقبل أُحُد.

ولهذا الاضطراب، والتناقض، ترى العالم المحقق الدكتور/ أبو عمر نادى ابن محمود حسن الأزهرى، الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية بالأزهر الشريف، ينحى كل ذلك ويستبعده فى كتابه: «المقبول من أسباب النزول» - ط ١ - ١٩٩٧م - فلا يعرض لشيء على الإطلاق مما ورد بالسيوطى أو الواحدى، ولا يورد الآية نفسها (المجادلة ٢٢)، تعبيراً عن أنه لم يجد فيما قيل عن مناسبات نزولها - ما يستوثق من قبوله فى الكتاب الذى خصصه للمقبول - فقط - من أسباب النزول<sup>(١)</sup>. أما فى كتابه: «الدخيل من أسباب التنزيل» - ط ١ - ١٩٩٩م - فقد تعرض بالنسبة للآية (٢٢) من سورة المجادلة، إلى ما أخرجه أبو المنذر عن ابن جريج، أن ابن جريج كثير التدليس، وصفه النسائى، وغيره بذلك. وقال الدار قطنى: شر التدليس لابن جريج، فإنه قبيح التدريس لا يدلس إلا فيما سمعه من مجروح، وأضاف الدكتور الأزهرى بالحاشية: راجع طبقات المدلسين لابن حجر الطبقة الثالثة - رقم ١٧<sup>(٢)</sup>.

ومن يراجع نص الآية الكريمة، وقد ذكرت الآباء والأبناء والإخوة والعشيرة، يرى أنها أعم من أن يُخص سبب أو مناسبة نزولها بشخص واحد بعينه، ولذلك فربما كان الأصح، وهو ما أشار إليه عبد الرحمن أبو عميرة فى كتابه: «رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآناً»<sup>(٣)</sup>، وأخذتُ به وغيره من رواية الثقات - فى السيرة

(١) المقبول من أسباب النزول. د. أبو عمر نادى بن محمود الأزهرى - ط ١ - ١٩٩٧م عن الآية

٢٢ من سورة المجادلة.

(٢) الدخيل من أسباب التنزيل. د. أبو عمر نادى محمود الأزهرى - ط ١ - ١٩٩٩م عن الآية ٢٢

من سورة المجادلة.

(٣) رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآناً. عن الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

النبوية في رحاب التنزيل (٢/٢٧٩-٣٠٠)<sup>(١)</sup> نسبةً إلى بعض المفسرين، من أن هذه الآية نزلت في مجموعة - وليس في واحد بعينه - من المسلمين الأوائل، ومن يراجع نتيجة القتال في بدر، يلمس بوضوح أنها كانت المناسبة التي نزلت بشأنها هذه الآية. فقد كانت القرايات بأنواعها، حاضرة في المعركة وفي مجاهدة ونتائج قتال حمزة وعلى وأبي بكر وعمر ومصعب وغيرهم من المسلمين الأوائل الذين لم يوادوا من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم، ومن ثم فلا محل للاستشهاد بمناسبة نزول هذه الآية لتوثيق القصة المنتحلة عن قتل أبي عبيدة لأبيه يوم بدر.

وغنى عن البيان أن القصة الوحيدة التي زعمت أن مقتل والد أبي عبيدة، بيد ابنه، كانت يوم أحد، قصة ضعيفة جداً، لا تصمد لأى بحث، ذلك أن جميع من قتل من قريش في هذا اليوم تسعة عشر رجلاً، لقاء سبعين من المسلمين، وأجمعت المصادر الأولى على ذكر أسماء قتلى قريش، وذكرتهم اسماً اسماً، سواء ابن هشام أو روايات ابن إسحق، أو الذهبى فى تاريخ الإسلام، أو الشامى فى السيرة الحلبية (سبل الهدى والرشاد) - ولم يرد اسم عبدالله بن الجراح ضمن قتلى قريش يوم أحد فى أى من هذه المصادر أو غيرها.

ويبقى أن التأرجح بين بدر وأحد، دليل آخر على انتحال هذه القصة، فلو كانت صحيحة، لاتفقت الروايات على يوم واحد لا خلاف عليه ولا تأرجح فيه! وفى اعتقادى، أن تمحيص هذه الرواية كان واجباً من أجل أبى عبيدة ذاته. فَقَتَلَهُ أَبَاهُ لَا يَضِيفُ بَطُولَةً إِلَى صَفْحَاتِ بَطُولَاتِهِ الَّتِي طَارَتْ فِي الْآفَاقِ، بَيْنَمَا قَدْ يَثِيرُ التَّبَاسُّ لَمْ يَقْدِرْهُ الْمُتَحَلِّونَ لِلرَّوَايَةِ - حَقَّ قَدْرُهُ!

يبقى أن فضل أمين الأمة، المجاهد الكبير، أبى عبيدة بن الجراح، فضل عظيم أسبغه المصطفى عليه الصلاة والسلام على أهل بدر من المجاهدين من المهاجرين والأنصار.

(١) السيرة النبوية. فى رحاب التنزيل. رجائى عطية - المجلد/٢ - ص ٢٧٩ - ٣٠٠.

أخرج البخارى ومسلم، بسنده، أن عمر بن الخطاب استأذن رسول الله ﷺ فى ضرب عنق حاطب بن أبى بلتعة الذى خان الأمانة حين أرسل بكتاب فى عام الفتح إلى أهل مكة، فقال له رسول الله ﷺ ناهياً إياه: «قد شهد بدرًا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وفى لفظ البخارى: «أليس من أهل بدر - وعلل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة - أو قد غفرت لكم»، فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم.

وأورد الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، بسنده عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل النار رجل شهد بدرًا أو الحديبية». وأورد بسنده عن أبى هريرة، قال النبى ﷺ: «إن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، وروى البزار بسنده عن أبى هريرة، قال رسول الله ﷺ: «إنى أرجو أن لا يدخل النار من شهد بدرًا إن شاء الله». (رواه ابن ماجه ٢٤٨١، وابن حنبل فى المسند ٦ / ٢٨٥).

وأخرج البخارى فى باب شهود ملائكة بدر، حديثًا مرفوعًا بسنده عن معاذ بن رفاعه بن رافع الزرقى عن أبيه - وكان من أهل بدر - قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها» - قال: «وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة»، (رواه البخارى فى المغازى فى باب شهود الملائكة يوم بدر ٣٩٩٢ وابن حجر فى فتح البارى ٣١٢/٧، وابن حنبل فى المسند ٣/٤٦٥).

وأخرج البخارى بسنده عن حميد أنه سمع أنسًا يقول: أصيب حارثة يوم بدر فجاءت أمه إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة منى فإن يك فى الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى فترى ما أصنع؟ فقال: «ويحك أو هبّلت أو جنة واحدة؟ إنها جنان كثيرة وإنه فى جنة الفردوس» (البخارى فى صحيحه ٩٨/٥، ١٤٢/٨ - وابن حجر فى فتح البارى ٣٠٤/٧).

٤١٥/١١) - وروى من غير هذا الوجه من حديث ثابت وقتادة عن أنس أن حارثة كان في النظارة وفيه: «إن ابنك أصاب الفردوس الأعلى». (المنذرى فى الترغيب والترهيب ٣٢٥/٢).

### المسيرات بين بدر وأحد

كان انتصار المسلمين الكبير فى بدر، امتحاناً بقدر ما هو انتصار، فقد كان بمثابة حافز لقريش وكفار ومشركى الجزيرة العربية، لمزيد من العداة والحرص على الثأر والسعى لضرب الدعوة قبل أن يستفحل أمرها، ويستعصى عليهم محاصرة مدها الذى طفق يتزايد تزايداً أحست به قريش من واقع من أخذوا يتسربون سراً من مكة للحاق بالمدينة، فضلاً عن كانت تأتى أخبارهم ممن راودهم الإسلام أو أسلموا من بعض القبائل، ولم يكن ذلك التربص القرشى ببعيد عن التفات وتقدير المسلمين، وانتباههم إلى المحافظة على صدّ محاولات التجرؤ عليهم.. وقد كانت المهمة الأولى التى أعقبت العودة إلى المدينة من بدر، مواجهة ما جعل يتزايد فى المدينة من مؤامرات اليهود والمنافقين. فقد كان وقع هذا النصر وأثره شديداً عليهم، فجعلوا يتغامزون ويتآمرون كيف لهذا الذى جاءهم طريداً ومن معه من أقل من عامين، قد صار صاحب المكانة والكلمة المسموعة فى يثرب، وبدأت هذه الطوائف فى بث الأشعار التى تحرض عليهم، ويتربصون بالمسلمين بما امتلأت به نفوسهم من الغل والضغينة، حتى أطلق اليهودى كعب ابن الأشرف لسانه يقول عمّن قتلوا فى بدر من سادات مكة: «هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس. والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظاهرها!.. ولم يكتف بذلك، فشد رحاله إلى مكة يحرض فيها على محمد والمسلمين، وينشد الأشعار ويبكى قتلى قريش الذين دفنوا فى القليب.. فلما عاد إلى المدينة جعل يشبب بنساء المسلمين، وتجرأ يهود بنى قينقاع على امرأة من العرب ذهبت إلى صائغ فى سوق اليهود من بنى قينقاع فى شأن حلية لها،

وجعل اليهود يريدونها أن تكشف وجهها، وعبث الصائغ بها بأن ثبت طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها، فلما نهضت انكشفت سواتها فتصاعدت ضحكاتهم وسخرياتهم، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ اليهودي فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه، ووقع الشر بين المسلمين وبين يهود بنى قينقاع، ولما طلب النبي عليه السلام إلى هؤلاء أن يكفوا أذاهم عن المسلمين وأن يحفظوا عهد الموادة الذى أعطاه لهم النبي ﷺ فور قدومه إلى المدينة، استخفوا بقوله، وأجابوه: «لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لو حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس».

### جلاء بنى قينقاع

نبذ بنو قينقاع العهد إلى رسول الله ﷺ، وتحصنوا بحصونهم، فخرج إليهم الرسول ﷺ في شوال ٢هـ، فى عدة من المسلمين كان من بينهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى أجمعت المصادر أنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله، وحاصروهم خمسة عشر يومًا، فنزل اليهود على حكم الرسول، وكانوا حلفاء الخزرج. فتوسط لهم عبدالله بن أبى بن سلول بطريقة فجأة، وتجاوز حدوده بصورة أغضبت الرسول ﷺ، فى قصة طويلة توسط فيها بأدب: عبادة بن الصامت الأنصارى، وانتهت بجلاء بنى قينقاع عن المدينة، حتى بلغوا وادى القرى، ومن هناك احتملوا ما معهم، وساروا حتى بلغوا «أذرعات» على حدود الشام، وهناك أقاموا.

### المسيرة إلى قرقرة الكدر

كان ذلك فى شوال للسنة الثانية للهجرة، واختلف المؤرخون فى تواريخ وترتيب المسيرات ما بين بدر وأحد، ويقال إن أقربها زمنًا إلى واقعة بنى قينقاع، المسيرة إلى بنى سُلَيْم فى «قرقرة الكدر».. والقرقرة هى الأرض الملساء، أما الكدر، فطيورٌ بألوانها كدرة عرف المكان باسمها لتجمع هذه الطيور فيه..

وأورد ابن إسحق أن هذه المسيرة كانت أسبق من غزوة بنى قينقاع، وكان سبب المسيرة إلى بنى سليم، أنه وردت أخبار بأن جمعاً من سُليم وِغَطْفان قد احتشدوا في الكُدْر، فسار إليهم الرسول في شوال بعد سبع ليالٍ من وصوله من بدر، وبلغ بمن معه، وكان فيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذي أجمعت المصادر أنه شهد المشاهد كلها مع الرسول ﷺ بلغوا ماءً من مياه بنى سليم يقال له الكُدْر، فلم يجد عليه الصلاة والسلام أحداً، فأرسل نفرًا من أصحابه للاستطلاع من أعلى الوادي، واستقبلهم في بطن الوادي بعد أن تأكدوا أن القوم قد رحلوا، ثم أقام ﷺ ومن معه ثلاث ليالٍ حتى تتسامع بهم القبائل، ثم عادوا إلى المدينة دون أن يلقوا كيداً.

### غزوة السويق

ويكاد يجمع الرواة، على أن سبب غزوة السويق.. والسويق نسبة إلى القمح أو الشعير المقلَى المطحون بسمن أو بعسل وسمن.. والصحيح أنها مسيرة لا غزوة وإنما درج الأقدمون على هذه التسمية لخروج الرسول عليه السلام فيها، وكانت في ذى الحجة من السنة الثانية للهجرة، ويكاد الرواة يجمعون على أن سبب المسيرة، أنه وردت الأخبار بأن فلول المشركين عندما عادوا موتورين محزونين إلى مكة، حَرَم أبو سفيان الدُّهْن على نفسه، ونذر ألا يمسّ الماء رأسه من جنابة، حتى يثأر من محمد وأصحابه بمن أصيب من المشركين يوم بدر، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبرّ يمينه، فسلك النجدية<sup>(١)</sup>، حتى نزل بصدر وادٍ إلى جبل يقال له: «يتيب» بقرب المدينة، حيث تسلل أبو سفيان ليلاً إلى يهود بنى النضير ليدبر معهم ما يفعلونه بمحمد ﷺ، ويقال إن حُيي بن أخطب خشي أن يفتح له عندما ضرب عليه باب، إلا أن سلام بن مشكم، وكان سيد بنى النضير في زمانه، استقبله سرّاً ونقل إليه خبر الرسول والناس، وأمضيا الليل

(١) مرتفع من الأرض نسبة إلى نجد.

يتآمران ويزين سلام لأبي سفيان كيف يستطيع أن يأتي المسلمين من خلفهم، فلما عاد أبو سفيان إلى حيث نزل برجاله، بعث بعضاً منهم، فأتوا ناحية يقال لها: «العُرَيْضُ»، وهو وادٍ بالمدينة به أموال لأهلها، فحرقوا ما بالمنطقة من نخل، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث فقتلوهما!

ويروى الرواة أن الرسول ﷺ خرج إليهم يوم الأحد الموافق الخامس من ذى الحجة ٢هـ، في نحو مائتين من المهاجرين والأنصار، فيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذي أجمعت المصادر أنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله، حتى بلغ بهم ﷺ «قَرْقَرَةَ الكُدْرِ»، بيد أن أبا سفيان ومن معه لاذوا بالفرار، وجعلوا يتخفون للهرب فيلقون ما معهم من جُرب السويق وهي عامة زادهم، فسميت المسيرة «غزوة السويق»، ولم يلحق بهم المسلمون فعادوا إلى المدينة بعد أن مكثوا خمسة أيام حتى تتسامع بهم الناس فلا يجترئون عليهم، ويروى أن المسلمين حينما رجعوا سألوا النبي ﷺ: أنطمع أن تكون لنا غزوة؟ قال: نعم. ولعل هذا هو مرجع إطلاق مسمى «غزوة» عليها. حيث كانت خروجاً لدفاع، ولم تكن غزواً، فضلاً عن أنه لم يحدث فيها قتال.

### غزوة غطفان أو ذى أمر

وفى ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة، خرج النبي ﷺ في عدد من المسلمين، إلى غطفان، حينما بلغه أن جمعاً من بنى ثعلبة بن سعيد بن ذبيان من غطفان، وبنى محارب بنى أمر، قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا أطراف المسلمين، فخرج ﷺ فيما سمي غزوة غطفان أو ذى أمر إلى نجد، خرج في أربعمائة وخمسين. كان فيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذي لم يتخلف عن أى مشهد مع الرسول ﷺ، فأصابوا رجلاً بنى القصة يقال له: جبار من بنى ثعلبة، فأخبر الرسول أنه خرج لاستطلاع يثرب. وقال للنبي ﷺ: إن غطفان وبنى محارب لن يلاقوك، ولو سمعوا بسيرك هربوا في رعوس الجبال وأنا

سائر معك. فدعاه الرسول إلى الإسلام وأسلم، ودل المسلمين على موضع القوم، حيث بلغوا ماءً يقال له: «ذو أمر»، إلا أن القوم حينما أحسوا بالمسير إليهم، هربوا إلى رءوس الجبال، وتفقد المسلمون المكان فلم يجدوا أحداً، ولكنهم رصدوا أشباحهم من بعيد على ذرى الجبال القريبة! فلبث المسلمون أياماً لتتسامع بهم العرب، وعادوا إلى المدينة بعد خمس عشرة ليلة، دون قتال.

### المسيرة إلى الفُرع من بُحْران

وما كاد المسلمون يلبثون أياماً بالمدينة، حتى جاء الخبر بأن جمعاً كثيراً من بنى سُليم بن منصور، قد احتشدوا في موضع «الفرع» من «بُحْران»، فخرج النبي عليه السلام إليهم في نحو ثلاثمائة من أصحابه، وفيهم صاحبنا أبو عبيدة المجمع على أنه شهد المشاهد كلها مع رسول الله، وحرص المسلمون على ألا يكشفوا وجهتهم، وقبل بُحْران لقوا رجلاً من بنى سُليم احتجزوه، وأخبرهم أن القوم افترقوا، ولكن النبي ﷺ سار بمن معه، حتى وردوا بُحْران، فلم يجدوا أحداً، فلبثوا في قول الواقدي عشرة أيام، وفي رواية ابن إسحق أنهم أقاموا باقى شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى للسنة الثالثة للهجرة، وذلك حتى يتسامع العرب بهم فلا يتكرر اجترأ الكفار والمشركين عليهم، هذا وقد قام المسلمون بإخلاء سبيل الرجل الذى لاقوه قبل أن يعودوا إلى المدينة دون قتال ودون أن يلاقوا كيداً.

### صد الكفار عن المدينة فيما شاعت تسميته: بغزوة أحد (شوال ٣ هـ)

لعلك لاحظت أنني أطلقت مسمى «المسيرة» على ما كان بين بدر وأحد، ولم يكن ذلك عفواً، ذلك أنها كانت مسيرات، ولم تكن غزوات فيما جرت

به كتابات المؤرخين القدامى، وتابعتهم كتابات المحدثين حتى اليوم. ذلك أن الأقدمين أطلقوا مسمى «غزوة» على كل ما خرج الرسول ﷺ فيه، غير أن المعنى الدارج اليوم لكلمة «غزوة»، و «غزو»، سواء باللغة العربية أو بترجمة الكلمة إلى اللغات الأجنبية، يعطى لبعض الوقائع وصفاً غير صحيح لها، فيظن القارئ العربى، والأدهى القارئ الأجنبى، أن المسيرة بلا قتال كانت غزواً، أو أن الدفاع عن المدينة فى أحد والخذق، كان غزواً، وقد أدت هذه التسميات إلى إحصاء عدد غزوات بما لا يطابق الواقع، وكان للأسف مادة لهجوم المتربصين للإسلام بأنه قام على السيف والغزو، ولذلك آن الأوان أن نعدل عما اعتاده الأقدمون ولم يجدوا فيه بأساً، إلى المسميات الصحيحة التى تعبر بلغة عصرنا عما كان فعلاً. ولذلك أطلقت على ما سبق، بين بدر وأحد أنه مسيرات، فلم يدر أو يحدث فى أى منها أى قتال، كما لم تكن غزواً بالمعنى الاصطلاحى الذى نعرفه لكلمة الغزو.

ولعلك لاحظت أيضاً أنني قد اخترت المسمى الصحيح ليوم أحد، فلم يكن ما جرى فيه غزواً بأى معنى من المسلمين، وإنما خرج المسلمون لصد الكفار من جبل أحد عن مدهامة المدينة والهجوم عليها، وقد سبق أن تعرضت لذلك فى كتاب «الأديان والزمن والناس» (كتاب الهلال ٦٦٦ - سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٦م)، فقلت فى الفصل المعقود فيه للأديان واللغة:

«لم يقصد الأقدمون - مثلاً، بلفظ «غزوة» الذى استخدموه فى رواية سيرة نبي الإسلام ﷺ، سوى أن النبي عليه السلام كان موجوداً بشخصه بين المسلمين فى «المسيرة» أو «البعثة» أو «المرابطة» أو «المدافعة» أو «السرية» - فأطلقوا لفظ «غزوة» على كل ما كان النبي عليه السلام موجوداً فيه، دون أن يقصدوا غزواً بالضرورة، وإنما قصدوا تمييزها عن تلك التى لم يكن الرسول حاضراً فيها بنفسه.. ومن ثم فإن عدم الالتفات فى الكتابة أو القراءة - اليوم - إلى المعنى «الاصطلاحى» الذى قصده الأقدمون فى رواية السيرة المحمدية،

يسرب إلى وعى المتلقى المعنى المعجمى والمفهوم العصرى السائد الآن لكلمة «غزوة»، فيحسب أن رسول القرآن ﷺ غزا الأراضى والناس فى كل ما صاحبه وصف «غزوة»، بينما لم يكن معظمها سوى «مسيرات» و «بعوث» لموادعة القبائل، وتأمين دار الهجرة، واستطلاع ما عساه أن يدبر لمداومة المدينة والإغارة عليها، أو «مرابطة» أو «مدافعة» لرد هجوم الكفار عن دار الهجرة، فلم تكن غزوة «أحد» غزواً وإنما كانت «مدافعة» بظاهر المدينة لرد قريش التى جاءت بأحلافها من الكفار للهجوم على المسلمين بالمدينة!.. ولم تكن غزوة «الخنديق» غزواً - فلم يخرج الرسول والمسلمون لغزو أرض ولا ناس، وإنما رابطوا وحفروا خندقاً حول المدينة لصد الأحزاب الذين حاصروها لغزوها! ولم تكن غزوة «تبوك» غزواً - وإنما مسيرة لصد هجوم مرتقب أتت الأخبار بأن الروم يحشدون له على التخوم لمهاجمة المسلمين!

ومن يتابع يلاحظ مخاطر عدم الالتفات إلى المفهوم الاصطلاحي الذى كان معنياً بكلمة «غزوة» فى كتابة السيرة المحمدية، بيد أن هذه المخاطر تتضاعف وتوغل فى الابتعاد عن المقصود حين تترجم الكلمة إلى لغة أخرى!.. ذلك أن للكلمة فى الإنجليزية مرادفات عديدة هى فى النهاية لمطلق كفاءة وذوق واختيار المترجم. من هذه المرادفات: «invade» ومعناها: اعتدى على، وغزا، وهجم، أو أغار على.. وكلمة «Raid» وتعنى: غارة أو مداومة أو سطو..، وكلمة: «attack»، وتعنى: هاجم، أو هجم على، أو داهم، أو أغار على، أو انقض على.. وكلمة: «assault»، ومعناها اعتدى واغتصب وهاجم، وغارة وحملة واعتداء وتهجم وهتك وهجوم عنيف. وكلمة: «maraud» - وتعنى «الإغارة للسلب والنهب»!!

نحن إذن، أمام موقعة جرت على جبل أحد خرج فيها المسلمون لا للغزو، وإنما لصد هجوم كفار قريش عن المدينة، فقد أجمعت الروايات على أن ثارات قريش لم تهدأ منذ يوم بدر، وقد رأيت ما كان من اتصالات بين قريش ويهود

المدينة ومنافقيها للتأليب على المسلمين، ورأيت الغارة التي شنها كُرُز بن جابر الفهري على أطراف المدينة وهروبه إلى «سَفَوَان» قبل يوم بدر، ورأيت إغارة أبي سفيان - بعد بدر - على وادي «العُرَيْض» بأطراف المدينة، وتحريقهم النخل وقتلهم رجلاً من الأنصار وحليفاً له، وفرارهم فيما سمي بـ «غزوة السَّوَيْق» - لتخفف الكفار المغيرين الفارين بإلقاء ما كان معهم من زاد أغلبه من جُرب السَّوَيْق!

فقد حملت قريش عداوتها وثاراتها وضغائناتها، وجمعت بقيادة أبي سفيان، وعبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وحويطب ابن عبد العزى، وصفوان بن أمية - وأسلموا بعد ذلك - جمعت جيشاً ضخماً لمحاربة رسول الله ﷺ، وأوفدت لجمع الحشود عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وهُبَيْرَة بن أبي وَهَب، وأبا عَزَّة: عمرو بن عبد الله الجُمَحَى الذى منَّ عليه الرسول وأطلقه يوم بدر - فطافوا بقبائل العرب لاستنفارها للخروج مع قريش لحرب المسلمين، واجتمع لقريش جيش ضخم فى نحو ثلاثة آلاف من قريش والأحلاف والأحباش، فيهم سبعمائة دارع ومائتا فارس، وخرج هذا الجيش العرمم من مكة - قاصداً المدينة لخمس من شوال للسنة الثالثة من الهجرة، وفيهم العبد الحبشى «وحشى» الموعود بعثقه إن نجح فى قتل حمزة بن عبد المطلب!

وفى المدينة، يصل الخبر للنبي ﷺ، بكتاب من العباس، بخروج قريش وأحلافها من بنى كنانة والأحباش، بعدتهم، قاصدين مهاجمة المدينة. وفى مشاورات طويلة، اختلفت فيها الآراء بين مدافعة الكفار من المدينة وبين الخروج لدفعهم عنها من خارجها، وغلب رأى الخروج لصد الهجوم من خارج المدينة، واستجاب النبي ﷺ - رغم ما كان يراه - لما ارتآه غالبية أصحابه، فلما جاء سعد ابن معاذ وأسيد بن حضير معاتبين المسلمين على استكراه الرسول على الخروج، وعدل المسلمون عمّا كانوا قد أبدوه وألحوا عليه، إلا أن النبي عليه السلام أبى

أن يعدل عما التزم به أخذًا بمشورتهم، وقال لهم: «قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبييتم، ولا ينبغي لنبي إذ لبس لأمته (عدة القتال) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه.. انظروا ما أمرتكم فاتبعوه. امضوا على اسم الله تعالى، فلكم النصر ما صيرتم».

كان المشركون قد عسكروا بجنوب أُحد، بظاهر المدينة، يملؤهم التيه والغرور بعد أن عرفوا برجوع المنافقين إلى المدينة وضآلة عدد المسلمين الذين رابطوا أمامهم بسفوح أُحد.. وبعد أن اطمأنت قريش وأحلافها إلى أن عدد الكفار وعدتهم أربعة أضعاف عدد وعدة المسلمين. وتقول الروايات: إن البعض من المسلمين استهول عدد الكفار بالقياس إلى عدد وعدة المسلمين، فذكرهم أحد الصحابة بأن النبي ﷺ أراهم في بدر أن الناس تُهزَم بالخذلان لا بعدد الرجال، ويقترح أنصارى الاستعانة بحلفائهم من اليهود لأن عليهم عهدًا وميثاقًا أن يدفعوا مع المسلمين من يهاجم المدينة، فيجيبه النبي ﷺ: «لا حاجة لنا بهم».. ثم يقف النبي فيخطب في المسلمين خطبة جامعة يهيئهم فيها لملاقاة العدو الذي جاء لهاجمتهم في ديارهم. ويؤكد عليهم أن يلتزم الرماة قمة جبل أُحد، وأن يثبتوا في أماكنهم، ولا يدعوا الكفار يأتونهم من ورائهم، وأن يلزموا أماكنهم لا يبرحونها حتى إن هزَموا الكفار ودخلوا في عسكرهم، أو حتى إذا انهزَم المسلمون وتخطفتهم الطير.. وحتى قال لهم النبي ﷺ: «وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وانضحوا الخيل عنا وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل! غالبين ما ثبتم مكانكم».

التقت موجات الكفار المهاجمين، المسلمين الذين تشبثوا بالدفاع عن دار مهجرهم، وشهدت الفصول الأولى للمعركة انتصارًا ملحوظًا للمسلمين.. شهد بطولات رائعة، تجلت فيها نسبية بنت كعب - البطللة أم الأبطال، والزبير بن العوام.. حوارى الرسول، وأبو دجاجة آخذ السيف بحقه، وعلى بن أبي طالب: الفارس المغوار، وأبو عبيدة بن الجراح: الأمين المجاهد، وحمزة بن عبد المطلب:

أسد الله وأسد رسوله. حتى إذا ظهر المسلمون، وخاب سعى قريش وحلفائها، وشاعت الهزيمة في صفوفهم وجعلوا يفرون أمام المسلمين، اغتر معظم الرماة المكلفين بالتزام قمة الجبل، وغمرتهم أشواق اللحاق بمشاهد النصر الجارى تحت أعينهم بسفوح الجبل، فلما مالوا ونزلوا على خلاف ما أمروا به، دارت الدائرة، وبدأت المقادير تؤذن بتحول خطيرا!

التف خالد بن الوليد، وكان يقود المعركة آنذاك مع المشركين، فركب بالفرسان قمة الجبل. فجعلت الكثرة المشركة - بحماية الرابضين على رأس الجبل، تغالب - بخيلها وعتادها - شجاعة المسلمين.. واستدارت الرحي، وتبعثر المسلمون بين قتيل أو جريح أو منهزم، وزاغت الأبصار حتى بلغت القلوب الحناجر. وانطلق صوت مرتاع ينادى أن محمداً قد قتل. وتسرى روح الهزيمة لولا قلة صمدت فى روعة تجل عن أى وصف، فانطلق أنس بن النضر يشد بسيفه على المشركين وهو يرتجز: اللهم إنى أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وظل يقاتل حتى تكاثرت عليه سيوف المشركين، وتقطعت الأوصال التى نهشتها السيوف، فسقط البطل خامد الأنفاس مضرجاً بدمائه، ومواضع الطعنات فى جسده بالعشرات!!

وفى مشهد آخر، يصول حمزة بن عبد المطلب ويجول، والكل يفرون من أمامه، ولكنه لا يلاحظ «وحشى» الرابض فى مخبئه لاصطياده، حتى إذا ما حانت له الفرصة، سدد حربته إلى حمزة، فوقعت الحربة فى أسفل بطنه وخرجت من بين رجليه، واندفع حمزة رغم آلامه إلى «وحشى»، ولكن جرحه الدامى غلبه وأعاقته الحربة المرشوقة فى بطنه.. فوقع قبل أن يصل إليه!!

ووسط هذا الاضطراب والخسائر، تترد أرواح المسلمين إليهم حين ينادى كعب بن مالك: يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله. ولكن المشركين ينتهزون فرصة انكشاف المسلمين، فيتلمسون النبى ﷺ - فى كل مكان ليقتلوه.. بيد أنه يقف لهم عليه السلام كالطود الشامخ، بيد أن عتبة بن أبى وقاص

تمكن من إصابته عليه السلام بأربعة أحجار قذفه بها، فكسر أحدها رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وتابع عبد الله بن هشام الزهري رضخه بالأحجار فشجه في وجهه - عليه السلام - شجة غائرة حتى أخضل الدم لحيته الشريفة!!

انتهز ابن قميئة هذه الفرصة وهوى بسيفه على رسول الله، فوقع ﷺ في حفرة أمامه، وامتنص وقوعه ودرعه قوة الضربة، فلا يلبث - عليه السلام - أن ينهض وطلحة بن عبيد الله يحميه من ورائه ويذود عنه من تكاثروا عليه من المشركين.. ولفت تكاثرهم أنظار المسلمين إلى مكان النبي، فطار أبو بكر وعمر والزبير وأبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وثاب معهم إليه من الأنصار: الحباب بن المنذر، وأبو دجاجة، وسعد بن معاذ، وسهل ابن حنيف، وسعد بن عباد، ومحمد بن سلمة.. فأحاطوا بالرسول ﷺ وجعلوا جميعاً يحمونه بأجسادهم.. والنبي عليه السلام يقول، آسياً: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل»!؟

ومن المشاهد التي تستوقف النظر، وتؤكد أن الإسلام لا يرضى أن يقتل المسلم أخاه.. أو أباه من باب أولى، أن النبي عليه السلام قد لاحظ أن سعد بن أبي وقاص يريد أخاه عتبة - ويلاحقه على ما فعله بالرسول، فينهاه عليه السلام عن أخيه، ويقول له ناهياً ناصحاً في حنو: «تريد أن تقتل نفسك؟! اللهم لن يحل الحول حتى يموت كافراً»!.. فينتهي سعد عن ملاحقة أخيه!

التقت طائفة من المؤمنين الذين تبايعوا على الموت، يحمون النبي ﷺ بأجسامهم وأرواحهم، والرسول عليه السلام يعاني من جراحه.. كُسرت رباعيته، وشُج وجهه، وحلقتان من حلقات المغفر الذي كان على رأسه، منغرزان بوجهه.. وهو عليه السلام مشغول عن ذلك كله بأمر المسلمين يشجعهم ويحفزهم.. بينما ينفلت رأس الكفر أبي بن خلف من بين المشركين مقنناً بالحديد وكاشفاً رأسه، يريد أن يقتل الرحمة المهداة عليه السلام.. ولكن استقبلته ضربة أطاحت به

وبدرعه، فيطير بها إلى المشركين وقد تملكه جزع شديد، وعبثاً حاول رفاق الكفر أن يفرخوا روعه، فقد انكشف عنه غطاؤه ورأى المنون زاحفاً إليه بدعاء النبي عليه!

وسط هذا الهول الذي تباع فيه هؤلاء الأبرار على الموت، حمايةً لرسول الله، يلح أبو عبيدة بن الجراح - ما أصاب رسول الله، فيطير إليه طيراً لنجدته، في مشهد وصفه أبو بكر الصديق فقال: إن أبا عبيدة اعترضه واستحلفه أن يترك مهمة نزع حلقتي المغفر إليه وقال له: «أقسمت عليه بحقي لما تركتني فأنزعهما من وجه رسول الله».

يروى أبو بكر أنه تنحى لأبي عبيدة بن الجراح ليقوم بالمهمة بدلاً منه وهو يغالب خوفه من أن يتناول أبو عبيدة الحلقتين بيده فيؤذي النبي ﷺ، ولكن أبا عبيدة التقت إحداهما بضمه وعض عليها، وشدها حتى وقع ووقعت إحدى ثناييه مع خروج الحلقة الأولى.. وهنا أراد أبو بكر أن ينزع هو الثانية فاعترض أبو عبيدة ملحفاً، قائلاً له: أقسمت عليك بحقي لما تركتني! فاستسلم أبو بكر راضياً لرغبة أبي عبيدة.. وتركه وما يريد.. فزم أبو عبيدة على الحلقة الثانية بضمه وشدها فسقطت ثناييه الثانية بينما سقط أبو عبيدة على ظهره، وما إن شاهد أبو بكر الراحة تبدو على محياً رسول الله، حتى تنفس الصعداء، وجعل يراقب صاحبه الغياث، وكان يقول بعد ذلك إنه ما رئى أهتم أصبح وجهاً من أبي عبيدة.

دعنا من تفاصيل ما جرى بعد ذلك في المعركة وما بعدها، ويمكن أن ترجع إلى تفصيلاته في المجلد الثالث من كتابنا السيرة النبوية في رحاب التنزيل (الكتاب الذهبي روز اليوسف - ٢٠٠٤م) ما يعينني هنا وغايتي استقراء جهاد وبطولة وتفاني أبي عبيدة بن الجراح والصحابة، أن النبي ﷺ تحدث عنهم فقال إنه قد وجبت لهم الجنة، وقال عن طلحة بن عبيد الله: «من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض، فليُنظر إلى طلحة بن عبيد الله».. وفي هؤلاء المجاهدين الأبرار نزلت الآية القرآنية تقول: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا

اللَّهِ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا بُدِيلًا ﴿١٦٩﴾ [الأحزاب: ٢٣]،  
ونزل فيما نزل بهذه المناسبة - عن الشهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٧٠﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ  
بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧١﴾ يَسْتَبْشِرُونَ  
بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١]..  
ونزل في مواساة المسلمين على ما أصابهم: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَحٌ فَقَدِمَسَّ الْقَوْمَ  
فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ  
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران: ١٤٠].

روى بإسناده، عن رسول الله ﷺ، أنه حين عاد إلى المدينة، دعا لمن معه ودعا  
للشهداء ودعا لمن خلفوا فقال: «اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم،  
وأحسن الخلف على من خلفوا، ثم قال: خلّ الدابة يا أبا عمرو» - يعني سعد  
ابن معاذ، فخلّى سعد الفرس فتبعه الناس، فقال عليه السلام: «يا أبا عمرو،  
إن الجراح في أهل دارك فاشية، وليس منهم مجروح إلا ويأتى يوم القيامة  
جرحه كأغزر ما كان. اللون لون الدم، والريح ريح المسك، فمن كان مجروحاً  
فليقر في داره وليداو جرحه ولا يبلغ معى بيتى، عزيمة منى».

وروى أبو يعلى بن المنذر أن حاتماً وابن أبي حاتم عن المسور بن مخرمة قال:  
قلت لعبد الرحمن بن عوف أخبرنى عن قصتكم يوم أحد، قال اقرأ بعد العشرين  
ومائة من آل عمران، أى من قوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ  
مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾، إلى آخر الآية الستين بعد المائة.

وبرغم الانتكاسة التى لحقت بالمسلمين لمخالفة الرماة عن أمر النبى ﷺ، فإن  
المسلمين استماتوا فى الدفاع عن الرسول ﷺ استماتة من المحال أن يقهر صاحبها،  
وضربوا صورة للعداء لا تصدر إلا عن قلوب مملأها الإيمان واليقين الصادق بدينهم  
وبأنهم على الحق، وأرواح هاجرت إلى الله وباعت الدنيا فى سبيل الآخرة.. هذا

وبرغم النصر الذى تحقق للكفار، فإنهم سقطوا سقطه شديدة بتمثيلهم بالقتلى، وهى مَعْرَة تأباها العرب ولا يقبل عليها الكرام، وتشين من يرتكبها، وقد مثلت قريش بقتلى المسلمين أبشع تمثيل، لم تكن صورة ما حدث لجثمان حمزة الذى شق بطنه وأخرج كبده، إلا مشهداً من مشاهد عديدة سقط فيها الكفار سقوطاً ذريعاً فى تمثيلهم بقتلى المسلمين، حتى مر الحُلَيْس، سيد الأحباش، صدفة ليرى أبا سفيان يتناول رمحاً ويضرب به فى شدة جثمان حمزة، فمضى الحُلَيْس وقد ساءه ما يفعله أبو سفيان يقول لمن حوله باستياء: «يا بنى كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحمًا!» فطار إليه أبو سفيان ليقول له متوسلاً: «ويحك، اكنمها على.. فإنها كانت زلة!»

لم يخرج المسلمون رغم أن الدائرة دارت عليهم بأية زلة، بل وكانت لهم صفحات بطولات مجيدة تطوى بدلالاتها أية نتائج وقتية، بينما سقطت قريش رغم نصرها فى زلات كثيرة، وتجلت الفوارق فى المشهد الأخير حينما برز أبو سفيان من بين المشركين على فرس حمراء تضرب إلى السواد، يشرف على المسلمين من عرض الجبل، وينادى متخائلاً: أعل هبل! فيأمر الرسول أصحابه بالألأ يجيبه أحد، فيتابع وقد طاشت أمانيه فى أن يكون محمدٌ وكبار المهاجرين قد قتلوا فى المعركة، فينادى على كل منهم باسمه ليعرف إن كان حياً أم صرع، والرسول ﷺ يأمر أصحابه بالألأ يجيبه أحد.. وبينما أبو سفيان قد تعشته الأمانى بأن محمدًا وكبار الصحابة قد صرعوا، والتفت للمشركين متباهياً بأنهم قتلوا وإلأ لأجابوه، لم يطق عمر بن الخطاب صبراً، فانفلت غاضباً يصيح: «كذبت يا عدو الله، قد أبقي الله لك ما يخزيك! إن الذين عددت لأحياء!»

فوقف أبوسفيان ينادى مزهواً: اعل هبل.

فرد عليه عمر بأمر النبى: الله أعلى وأجل.

قال أبوسفيان: ألأ لنا العزى ولا عزى لكم.

فأجاب المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم!

قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، ألا إن الأيام دول، وإن الحرب سجال.  
فرد عليه عمر بأمر النبي: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار!

### في أعقاب أحد ومسيرة حمراء الأسد

كان المشهد في ساحة أحد - بعد المعركة، مشهداً حزيناً، يعج بجثث القتلى،  
وأشلاء الجرحى والممثل بأجسادهم.. حتى ثار البعض متوعدين قائلين: «لئن  
ظهرنا عليهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثلة لم يمثّلها أحد من العرب بأحد قط!»  
بيد أن الوحي ينزل على الرسول ﷺ، فيوحي إليه من كلمات ربه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ  
فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا  
صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ  
اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٢٦ - ١٢٨].

لم يصرف الحزن - لم يصرف رسول الله ﷺ عن تدبر الأمور، ففي الوقت  
الذي أشرف فيه على دفن القتلى وتطبيب ومواساة الجرحى، أرسل عليه السلام  
من يستوثق من أن قريشاً قد اتجهت مباشرة إلى مكة، وليس في نيتها الإغارة  
على المدينة، وما إن فرغ عليه الصلاة والسلام من مواساة أسر الشهداء، وترتيب  
الأمور بالمدينة، حتى عزم على الخروج لغده في أثر قريش في ملاحقة تفرضها  
موجبات استرداد هيبة المسلمين، وإثناء قريش وإطلاعها على ما يكفها عن  
الاستطراد في سرورها وتيهها وأمانيتها أن تعاود الهجوم لاستئصال شأفة الإسلام  
والمسلمين، فضلاً عن كف أمانى اليهود والمنافقين بالمدينة، لذلك فما إن أشرق  
صباح الغد من يوم أحد، وكان الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ٣هـ،  
حتى أذن مؤذن النبي ﷺ في المسلمين لاستنفارهم للخروج في مطاردة الكفار،  
على ألا يخرج معه إلا من حضر أحد، فخرج المسلمون في أثر قريش، وفيهم  
الأبطال الذين استماتوا بأمس رغم ما بهم من جراح، ومنهم طلحة بن عبيد الله،

وصاحبنا أبو عبيدة بن الجراح وباقي الأبرار المغاوير، ولم يأذن النبي ﷺ لأحد لم يحضرهم بأمس، إلا لجابر بن عبد الله الذي أبدى أنه كان حريصاً على حضور أحد، ولكن أباه إذ خرج فيها، فإنه تركه على أخوات سبع لا ينبغي تركهن وحدهن وهن نُسَيَاتُ ضعاف، واستحلف الرسول ﷺ أن يأذن له لينال الشهادة التي تمنها، فأذن له.

كانت عينا النبي عليه السلام، قريتين بأصحابه هؤلاء الذين دعاهم للخروج معه فلبوا دعوته رغم جراحهم وآلامهم وقرحهم.. ويتنزل الروح الأمين على الرسول ﷺ فيوحى إليه من آيات ربه: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ مِنْ اللَّهِ وَفَضَّلَهُمْ لِمَ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤].

يمضى الرسول عليه الصلاة والسلام ومن معه في أعقاب قريش، حتى وصلوا إلى حمراء الأسد وهي على موضع ثمانية أميال من المدينة عن يسار طريق المتجه إلى ذى الحليفة، فعثروا هناك على جثمانى شقيقين كان المسلمون قد أوفدوهما للاستطلاع، فوقعت عليهما قريش فصرعتهما وتركت جثمانيهما بالعراء بالصحراء، فصلى عليهما الرسول والمسلمون، وواروهما بموضعهما في قبر واحد. قبل أن يتفقد المسلمون المكان ليحطوا رحالهم ويضربوا مضاربهم في الموضع الذي اختاروه - ليرصدوا ويراقبوا ماذا سوف تفعل قريش وأحلافها.

وفي الليل، يأمر النبي ﷺ أصحابه أن يكثرُوا من مواقد النار ما وسعهم الإكثار، ليوهم قريشاً وأحلافها أنهم جاءوهم في حشد كبير وعدد وعدة.. ويقيض الله للمسلمين رجلاً شهماً تعاطف معهم ومع الرسول ﷺ وإن كان لا يزال على الشرك، هو معبد الخزاعي.. مرّ على المسلمين بحمراء الأسد في طريقه. وتحدث

إليهم، فلما مرَّ بالروحاء على أبي سفيان ومن معه، وسأله أبو سفيان عن شأن المسلمين الذين يرى مواقدهم، أجابه معبد: «إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقاً، وقد أجمع معه من كان قد تخلف عنه، واجتمعت إليه الأوس والخزرج، وتعاهدوا ألا يرجعوا حتى يلحقوكم.. وكلهم أشد ما يكون عليكم حنقاً ومنكم للثأر طلباً»!..

ولا بد أن أبا سفيان قد فكر طويلاً فيما سمع، وفيما توحى به مواقد النار التي أنارت الصحراء.. ولا بد أنه تراوح بين الرجوع لمواجهة محمد والمسلمين، أو الفرار إيثاراً للسلامة.. ولا بد أنه فكر في عواقب لو رجع إلى محمد فهزمه المسلمون، وكيف سيفسد عليه ذلك ما حققه يوم أحد من نصر يريد ألا يفسده ويريد أن تتسامع به العرب، ولا بد أنه فكر أيضاً في عواقب الفرار لو تحدث به الركبان.. فلجأ أبو سفيان إلى الحيلة، وانتهاز فرصة مرور ركب من عبد القيس يريدون المدينة، فأوعز إليهم أن ينقلوا إلى محمد أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلوا بقيتهم.

بيد أن إرادة محمد ﷺ وأصحابه لم تهن ولم يضعف عزمهم لسماع ما أتى به ركب عبد القيس، فظلوا في مضاربهم لا يريمون، ويوقدون النيران الكثيفة كل ليلة، لثلاث ليال، وهنت فيها عزيمة قريش، وتزعزعت همتهم، فأثروا العودة أدراجهم إلى مكة، ثم عاد الرسول ﷺ والمسلمون - بعد أيام - إلى المدينة وقد استردوا كثيراً من المكانة التي أثر فيها يوم أحد، وتتحافت ضحكات اليهود والمنافقين، وتتوارى سخرياتهم!

### أبوعبيدة الجندي في سرية

### أبي سلمة بن عبد الأسد إلى قطن

ما إن مرَّ شهران على أحد، إلا أتت الأخبار بأن طليحة بن خويلد الأسدي، وأخاه سلمة، وكانا على رأس بني أسد، قد أخذوا يحرضان قومهما ومن أطاعهما

من القبائل، على التجمع للسير إلى محمد في عقر داره، ومهاجمته بالمدينة، على أمل أن يصيبوا من أطراف المسلمين، ويغنموا منهم، يزين ذلك لهم الاعتقاد بأن يوم أحد قد وضع من المسلمين، وأنهم لم يبيلوا بعد مما أصابهم فيه، ومن ثم فالفرصة سانحة للهجوم عليهم!

وعلى نظام ما نسميه اليوم بالحرب الوقائية، فكر الرسول عليه الصلاة والسلام، في أن يرسل سرية تقى المسلمين مغبة هذا التجمع الجارى تدبيره لمهاجمتهم، فدعا ﷺ إليه - أبا سلمة بن عبد الأسد، وعقد له لواء سرية بلغ عددها مائة وخمسين، فيهم أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأسيد بن حضير.. ولم يستنكف أحدهم أن يكون - رغم مكانته وسابقته - جندياً تحت قيادة أبي سلمة بن عبد الأسد.. وتقول الروايات: إن النبي ﷺ أمرهم بالسير ليلاً والاستخفاء نهاراً وسلوك طريق غير مطروق، حتى لا يطلع أحد على خبرهم، فيفجئوا المتجمعين المتأهبين لمهاجمة المدينة، بالإغارة عليهم على غرة قبل أن يأخذوا أهبتهم. وقد نفذ أبو سلمة ومن معه، الأمر الصادر إليهم، وساروا مستخفين حتى انتهوا إلى أدنى قطن - من مياه بنى أسد، وما لبثوا حتى داهموا القوم بغتة وأحاطوا بهم في عماية الصبح، فلم يستطع المشركون الصمود لهم فهربوا، وانعقد النصر للمسلمين، وعادوا للمدينة ظافرين بعد أن أجهضوا استعدادات طليحة وبنى أسد للهجوم عليهم!

### تصاعد الهجوم على المسلمين في أعقاب أحد

#### [١] يوم الرجيع!

عَرَضُ ما تعرض له المسلمون في أعقاب أحد، واجب لبيان بطلان الزعم بعدوانية الإسلام والمسلمين - وقد مر بنا أن أحدًا لم تكن غزوة كما جرت تسميات الأقدمين والمحدثين، وأن ما أعقبها لتلافي آثارها الضارة والحفاظ على هيبة المسلمين من المزيد من التجرؤ عليهم، كان مجرد مسيرات لم يجر فيها قتال،

وتورى الأحداث التالية لأحد، أن الكفار لم يدعوا المسلمين لحالهم، وجعلوا يحيكون لهم ويتآمرون عليهم. وقد روى الرواة أنه فى أواخر السنة الثالثة للهجرة، قدم على الرسول ﷺ بالمدينة، رهط من عَضَل والقارة، وهما حَيَّان من الهون بن خزيمة بن مدركة، ويقال إن ذلك كان بتحريض من بنى لِحِيان من هذيل، فرعموا للرسول ﷺ كما روى ابن إسحق وابن هشام، أن فيهم إسلامًا، وطلبوا أن يرسل معهم من أصحابه من يفقههم فى الدين، ويعلمهم شرائع الإسلام.. فبعث عليه الصلاة والسلام معهم عددًا من أصحابه، قيل فى رواية ابن إسحق إنهم كانوا ستة، وقيل تسعة، والستة المتفق عليهم هم: مرثد بن أبى المرثد الغنوى، وخالد بن البكير الليثى، وعاصم بن ثابت بن أبى الأفلح، وخُبَيْب ابن عدى، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق.. وإذ هم فى الطريق للقيام بهذه المهمة الكريمة التى ادعى وفد القبيلة أنهم فى حاجة إليها، وعند «الرجيع» - وهو ماء لقبيلة هذيل بالقرب من الحجاز على صدر الهدأة: وهو موضع بين عسفان ومكة على نحو سبعة أميال من عسفان - غدروا بهم واستصرخوا عليهم قبيلة هذيل، فدفعت عليهم ما بين مائة ومائتين من الرماة وغير الرماة، فامتشق المسلمون الستة سيوفهم للدفاع عن أنفسهم، فرعمت لهم هذيل أنها لا تريد قتلهم، ولكنها تريد أن تأخذهم إلى مكة لتصيب ثمن تسليمهم، ولكن مرثدًا، وعاصمًا، وخالد بن البكير - صمموا على مقاتلة الغادرين، وقالوا إنهم لن يقبلوا عهدًا ولا عقدًا من مشرك غادر خادع، وخاضوا القتال حتى غلبتهم الكثرة فاستشهدوا، وأنقذت الأمطار والسيول التى اكتسحت المنطقة فى المساء - أنقذت رأس عاصم من أن تؤخذ هديةً إلى مشركى مكة، وتمكن الغادرون من أسر الثلاثة الباقين، وفى أثناء اقتيادهم إلى مكة، انتزع عبد الله بن طارق يده من الحبل المكبل به، ثم أخذ سيفه، ولكن القوم رموه بالحجارة وتجمعوا عليه حتى قتلوه، وتوجهوا بالأسيرين: خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة إلى مكة، حيث بيع الأسيران لبعض الحاقدين من قريش الذين وتروا يوم بدر، فقتل كل منهما فى مشهد طويل على

مرأى من كبار قريش وعلمانها، سقط فيها كفار قريش سقطة شنيعة إلى هاوية لا تفرها الأخلاق ولا التقاليد العربية، بينما ضرب الشهيدان مثلاً رائعاً للصبر والبطولة، ويمكن للقارئ الرجوع إليه في كتب السيرة وفي كتابي: «السيرة النبوية في رحاب التنزيل» (٢٠٥/٣ ٢٢٣)..

## [٢] يوم بئر معونة!

بينما المدينة غاصة بالأحزان على شهداء يوم الرجيع، يفكر المسلمون فيما ينبغي عليهم عمله للدفاع عن أنفسهم وعن الإسلام، وفي أحد أيام صفر للسنة الرابعة للهجرة (٦٢٥م) - دخل المسجد النبوي رجل مهيب مقتول، تبدو الخيلاء في مشيته، هو مُلاعب الأُسنة: عامر بن مالك بن جعفر.. سيد بني عامر بن صعصعة.. سمي مُلاعب الأُسنة لشجاعته ومهارته في يوم «سربان».. وكان يوماً من أيام «جبله» (هضبة عالية).. وهي أيام كانت بين قيس وتميم.. قصد الرجل لفوره إلى الرسول ﷺ، ليبتدره قائلاً بأنه جاءه بهدية، فلما أجابه النبي ﷺ بأنه لا يقبل هدية مشرك! قال ملحاً: يا أبا القاسم، هذه هدية لا يرفضها العرب!.. ومضى الرجل بعد أن أنصت ملياً إلى ما بسطه الرسول ﷺ عن الإسلام، فعرض أن يبعث معه النبي عليه الصلاة والسلام - رجالاً من أصحابه إلى قومه وأهل نجد ليدعوهم فعسى أن يستجيبوا لدعوته. فأبدى عليه الصلاة والسلام أنه يخشى عليهم أهل نجد، فجعل عامر بن مالك يؤكد أنه جار لهم ألا يعرض لهم أحد، وأخذ يلح في إعطاء العهد على نفسه، حتى دعا الرسول ﷺ - صاحبه المنذر ابن عمرو أخوا بني ساعدة (المُعْتِق ليموت - أي المسرع للموت).. وهو لقب أطلقه عليه الرسول ﷺ تعبيراً عن مسارحته للشهادة في بئر معونة، كما سيأتي.. فعهد إليه النبي ﷺ أن يخرج في نفر من خيار المسلمين.. فيهم الحارث بن الصمة، وحرام بن ملحان، وعُزْرَةَ بن أسماء بن الصلت السلمي، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر.. ومعهم عدد من شبان

الأنصار يسمونهم «القراء» لكثرة قراءتهم للقرآن وعكوفهم على دراسته، فينتدبهم عليه الصلاة والسلام للخروج مع عامر بن مالك للقيام بالمهمة السامية التي دُعوا إليها.

ويقول الرواة: إنه بعد أيام حط الركب رحاله على «بئر معونة».. وهو ماء لبني سليم في موضع بين أرض بني عامر وأرض بني سليم.. وَبَعَثَ المسلمون بصاحبهم حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل. بيد أن هذا الأخير ينحى الخطاب حين تقديمه إليه بمضارب قبيلته، ويعدو بغتة على «المبعوث» حرام بن ملحان فيقتله غيلة خلافاً لتقاليد تأمين الرسل والمبعوثين.. فيتصايح كثيرون من بني عامر محتجين على قتل المبعوث وعلى النكت بجوار أبي براء عامر بن مالك، وينحاز إليهم شيخ من شيوخ بني عامر، فيندفع عامر بن الطفيل معترضاً على خذلانه، بأنه سيلجأ إلى قبائل بني سليم: عُصية ورِغْل، ودُكْوَان وزَعْب.. ليعدوا معه على المسلمين ليقتلوهم على بئر معونة!.. ويقول الرواة إنهم تكاثروا على البعثة حتى قتلوها عن آخرها، ولم يبق سوى المنذر بن عمرو، فقالوا له: إن شئت أمناك. فقال المنذر: لن أعطي بيدي ولن أقبل لكم أمناً، وقاتلهم حتى قتل.. فلما بلغ ذلك رسول الله قال: «أعنق ليموت».. أى أسرع إلى منيته! لم تكن الكارثة فقط في النتيجة المحتومة لهجوم المئات المدججين بالسلاح على أربعين أو خمسين معظمهم من القراء، في معركة غير متكافئة خلفت على الرمال مشاهد أشلاء الشهداء الذين تركوا بلدهم في رسالة سامية، فأخذوا غيلة وقتلوا ببشاعة طارت بها الأنبياء إلى رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة. قبل أن تخف آلام من قتلوا يوم الرجيع وما تلاه بمكة!! ولكن الأثر المخيف، كان في ردود أفعال وآثار هذا العدوان الغادر المتكرر على المسلمين، تتسامع به العرب، بما سوف يحمله ذلك من نُذُرٍ المزيد من الاجتراء على الدعوة وضربها وإجهاضها وبث الرعب في نفوس كل من يتقبل هدايتها ويرغب في الإيمان بها والدخول في باحة الإسلام!

## [٣] مؤامرات اليهود

### ويوم بنى النضير!

قد مر بنا بعض ما كان من مؤامرات اليهود مع المنافقين بالمدينة، وتنسيقهم مع كفار قريش لضرب الإسلام والمسلمين.. ومر بنا ما كان من بنى قينقاع في أعقاب بدر، وانتهاء الأمر بإجلائهم عن المدينة بعد أن قامت عليهم الحجّة وتوسط لهم - بجلافة - عبد الله بن أبي بن سلول، وتوسط لهم بأدب الصحابة - الأنصاري عبادة بن الصامت، فغادروا في سلام.. إلا أن من بقى من اليهود بالمدينة، من بنى النضير وبنى قريظة، لم يكفوا عن الكيد للرسول ﷺ والإسلام والمسلمين. وجعلت بنو النضير تمعن في كيدها ومؤامراتها ودسائسها حتى دبرت لقتل الرسول عليه الصلاة والسلام، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى إجلائهم عن المدينة فى أوائل السنة الرابعة للهجرة.. كان لذلك أسباب سابقة قديمة، وأخرى جديدة.. أما الأسباب السابقة، فكانت فيما وقع من مراسلات بين قريش واليهود لتحريضهم على المسلمين قبل بدر، وهى مراسلات وصلت إلى علم المسلمين<sup>(١)</sup>، ورجع اليهود والمنافقون عما كانوا قد أزمعوه. وتفرقوا بعد لقاء الرسول ﷺ بهم فى جماعة من أصحابه، وبعد أن قال لهم وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، وما كانت (قريش) لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم»!.. فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا، وآثروا السلامة.

فلما بلغ ذلك كفار قريش، كتبوا بعد وقعة بدر إلى اليهود: «إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلنَّ صاحبنا (محمدًا) أو لتفعلنَّ كذا وكذا، ولا يحول بين خَدَم (جمع خدمة وهى الخلخال) نساءكم شىء». فلما بلغ اليهود هذا الكتاب، اجتمع بنو النضير على هذا الغدر، وطلبوا لقاء الرسول ﷺ فى

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد - محمد الصالحى الشامى ٤/٥١٤.

ثلاثين من أصحابه، مقابل ثلاثين من أحبارهم، ليتحاوروا ويلتقوا على أمر بينهم وبينه، ثم احتالت بنو النضير فطلبوا من النبي ﷺ أن يخرج إليهم في ثلاثة من أصحابه، ويخرجوا إليه ثلاثة من علمائهم، حتى يكون الحوار أسهل، بينما أخفى بنو النضير خناجرهم في ثيابهم وأزمعوا الفتك بالرسول عليه السلام، ولكن امرأة ناصحة من بنى النضير بعثت إلى أخيها وكان قد أسلم، تخبره بما أضمره بنو النضير، فسارع بخبرهم إلى رسول الله ﷺ، فانصرف بمن معه قبل أن ينفذ بنو النضير ما دبروه من الغدر!

ولم تنقطع بنو النضير عن الكيد والتآمر على الإسلام والمسلمين، وقد مرّ بنا أن زعيمهم سلام بن مشكم استقبل أبا سفيان وتناجيا طوال الليل ودله كيف يمكن أن يهاجم المسلمين من خلفهم على أطراف المدينة، فكانت الغارة التي شنّها أبو سفيان وتعقبهم المسلمون بعدها فيما سمي بغزوة السويق! ثم كانت أحد، وما تلاها من إغارات على أطراف المدينة، واثتمار طليحة الأسدى وقومه، وغير ذلك من التجمعات التي استهدفت المسلمين ثم انفضت لدى خروج المسيرات إليهم.. كان هذا وما جرى يوم الرجيع، ثم فى بئر معونة، داعياً يهود بنى النضير إلى المزيد من الكيد والتآمر، ومنبهاً المسلمين - فى الوقت ذاته - إلى وجوب حسم الأمور ليظهر النفاق من الصدق، ويتحمل كل طرف مسؤوليته من واقع نواياه وما يخفيه ويدبره بليل من وراء الأستار. ولما كان النبي ﷺ قد لام عمرو بن أمية الضمري لوماً شديداً على قتله رجلين من بنى عامر لم يكن النبي قد أجارهما، وأعلن عليه السلام أنه سوف يؤدى الدية إلى قومهما، فإنه أراد امتحان بنى النضير فى نواياها، وكانوا حلفاء لبنى عامر، فذهب عليه السلام فى عشرة من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى - إلى بنى النضير، يطلب إليهم المعاونة فى دية القتيلين. كان هذا هو السبب المستجد، وتقول الروايات: إن بنى النضير أضمرت يومها قتل الرسول ﷺ وقد جاء مسالماً فى أصحابه بين ظهرائيها، فأظهروا الموافقة وقالوا للرسول: «نفعل يا أبا القاسم ما أحببت»، بينما قالت لهم شياطينهم إنها

فرصة لا بد من اهتبالها.. فهي لن تتاح لهم ثانية، فالنبي عليه الصلاة والسلام جالس في أصحابه بأسفل بيت من بيوتهم، ومن السهل قتله غيلة، فأوعزوا إلى أحدهم، ويدعى عمرو بن جَحَّاش بن كعب، أن يصعد إلى سطح البيت الذي يجلس الرسول ﷺ وأصحابه تحته، ليلقى منه صخرة كبيرة على الرسول ﷺ. ولكنه عليه الصلاة والسلام أتاه الهاتف بأن شرًّا يحاك له، فأبدى أنه يريد شيئاً فاته ونهض ليحضره، ولكنه رجع إلى المدينة، بينما كان بنو النضير غافلين عن ذلك، يرتبون أمرهم، ويرفضون مشورة صاحبهم سلام بن مشكم الذي أراد نهيهم عن هذا التدبير، وقال لهم: «يا قوم أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر، والله لئن فعلتم لِيُخْبِرَنَّ بَأَنَّا قد غدرنا به، وأن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه، فلا تفعلوا»<sup>(١)</sup>.

وإنهم لفي جدلهم، وعمرو بن جَحَّاش قد هيا الصخرة لإلقائها على الرسول عليه السلام، إذ جاء يهودى من المدينة، فلما رأى قومه يتناجون، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نريد أن نقتل محمداً ونأخذ أصحابه! فقال لهم: وأين محمد؟ قالوا: هذا محمد قريب. فقال لهم صاحبهم: والله لقد تركت محمداً داخل المدينة!.. حينذاك أسقط في أيديهم، بينما انكشف للرسول ﷺ والمسلمين ستر ما دبره بنو النضير وأوشكوا أن يقارفوه!

ندمت اليهود على ما ظهر وانكشف من أمرها، وعَضُّها الخوف من نتائج غدرها الذي افتضح ستره، ويقال إن الرسول عليه الصلاة والسلام قد بدأ بإعذارهم، فأرسل إليهم محمد ابن مسلمة يطلب إليهم أن يغادروا المدينة بعدما كان منهم، ونقضهم العهد الذي أعطاه النبي ﷺ لهم، وشروعهم في قتله غيلة وغدرًا وهو في بيوتهم!!

وبينما يهود بنى النضير يتفكرون فيما أتاهم من إعدار، ويميلون إلى الجلاء وإيثار السلامة، أرسل إليهم عبد الله بن أبي بن سلول، مبعوثين موفدين من

(١) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ٤/٤٥٣.

قبله، يحرضهم على البقاء والقتال، ويعددهم بأن معه ألفين من قومه ومن العرب سينضمون إليهم في حصونهم لمداغة المسلمين، فضلاً عن إمداد يهود بنى قريظة، وحلفاء ابن سلول من غطفان، ويقال إنه على نقيض ذلك نصح سلام بن مشكم قومه يهود، ولام حُيى بن أخطب على تحريضه بنى النضير، وأشار عليهم بقبول السلام الذى أعطاه لهم الرسول الذى يعرفون صفته عندهم، بأن يخرجوا من بلاد العرب فى سلام<sup>(١)</sup>.

فلما انتهت مهلة المسألة، وغلب منطق المنافقين والمحرضين، خرج النبى ﷺ فى أصحابه من المهاجرين والأنصار، وفيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذى شهد المشاهد كلها مع رسول الله، إلى حصون بنى النضير، وضربوا مضاربهم ورابطوا حولها، ولم تفلح قذائف بنى النضير ورميهم الحجارة وإطلاقهم النبال والسهام، فصبر المسلمون وجالدوا فى درء ما كانوا يُقذفون به من وراء الحصون؛ وأيقن اليهود أنه لن تلين لهؤلاء المجاهدين قناة ولا إرادة، وبعد ست ليال، انكشف فيها كذب وعود حُيى بن أخطب، واستبان إحجام بنى قريظة عن المساندة، وعدم تقدم أحد من العرب لنجدتهم كما وعدهم بن أبى بن سلول، لم يجد يهود بنى النضير بدءاً من أن يسألوا الرسول ﷺ أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم ونزاريتهم حتى يخرجوا من المدينة، فصالحهم عليه السلام على أن يخرجوا، ولكل ثلاثة منهم بغير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب، واحتمل اليهود ما شاءوا وعلى رأسهم حُيى بن أخطب، ويروى أنهم خرجوا ومعهم الدفوف والمزامير، والقيان يعزفن خلفهم إظهاراً للتجلد، وصف لهم الناس فجعلوا يمرون قطاراً فى أثر قطار، وحزن المنافقون لخروجهم حزناً شديداً، ونزل أكثرهم بخبير ومنهم حُيى بن أخطب، وسلام بن أبى الحقيق، بينما سار آخرون إلى أذرعات بالشام.

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد ٤٥٦/٤ - ٤٥٩.

## المسيرات الدفاعية لاحتواء الأثر وبث الهيبة

قد رأينا ما تعرض له المسلمون تبعاً منذ أحد، ولم يكن من الممكن أن يستكتوا على ضربات الكفار بغير رد يوقف محاولاتهم إجهاض الدعوة والصد عن سبيل الله.. وحين نفهم ذلك، يتضح لنا كيف أن المسلمين لم يكونوا طلاب حرب أو هواة قتال، أو أن السيف كان أداتهم لفرض الإسلام.. فقد بدأت الدعوة مادةً أيديها بالسلام وداعية إلى التوحيد والهداية بالحكمة الموعظة الحسنة.. فحوصرت وعذب المسلمون وأجبروا على الهجرة والخروج من بلدهم وترك ديارهم وأموالهم.. وأرادوا أن يواصلوا في مهجرهم الدعوة إلى سبيل الله. فشنف لهم اليهود والمنافقون بالمدينة، وعادتهم قريش واستعدت عليهم، وشن الكفار من وقت لآخر غارات على أطراف المدينة، ولجأوا للخيانة والغدر بقتل من سألوهم أن يذهبوا معهم أو إليهم للهداية والتفقيه في الدين، ولا مراء في أن السكوت على هذا العدوان المتكرر تفريط في الحق، وتفريط في واجب حماية الدعوة من الصد عن سبيلها، ويؤدي إلى بث الرعب فيمن يهديه قلبه وضميره إليها..

### غزوة بنى لحيان

لذلك تحرك المسلمون للدفاع عن أنفسهم واحتواء الأثر الذي أراد الكفار محاصرة الدعوة به، فيقول الرواة: إن رسول الله ﷺ خرج بنفسه في جمادى الأولى للسنة الرابعة للهجرة فيما سُمي بغزوة بنى لحيان.. وخرج معه المهاجرون والأنصار وفيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذي أجمعت المصادر على أنه حضر المشاهد كلها مع رسول الله.. خرجوا في طلب أصحاب الرجيع، الذين غدروا بالمسلمين الذين ذهبوا معهم للهداية التي طلبوها وتركوا جثامينهم عارية مكشوفة بالصحراء نهباً للوحوش والكواسر، واقتادوا المأسورين غدراً: حُبيب بن عدى وزيد بن الدثنة، ليسلما إلى موتورين من قريش يقتلانهما قتلة بشعة!

خرج الرسول عليه السلام بمن معه من هؤلاء المجاهدين الأبرار، فسلكوا شمالاً طريق الشام حتى لا تعرف العيون وجهتهم، ثم التفتوا إلى أرض بنى لحيان - وهم من هذيل، فوجدوهم قد أخذوا حذرهم وفروا جبناً إلى حيث تمنعوا في رءوس الجبال. فأراد النبي ﷺ أن تصل رسالة هذه المسيرة إلى قريش، فقال لأصحابه: «لو أنا هبطنا عُسفان لرأت قريش أننا قد جئنا مكة»، وتابع عليه الصلاة والسلام مسيرته في مائتي راكب من أصحابه حيث نزلوا عُسفان، ومن هناك بعث بفارسين إلى كراع الغميم.. وهو وادٍ على ثمانية أميال من عُسفان، ليصل خبر المسيرة إلى قريش التي تواطأت في هذا الغدر الذي كان يوم الرجيع، وقاتلت المغدور بهما: خبيباً وزيداً، شر قتلة على مشهد من القرشيين وأهل مكة!!

### غزوة ذات الرقاع

ما كاد المسلمون يعودون من الرابطة على حصون بنى النضير الذين جلوا عن المدينة، حتى أتت الأخبار بجمادى الأولى في أوائل السنة الرابعة للهجرة - بأن غطفان قد جمعت جموعاً بنجد هي وبنو محارب وبنو ثعلبة يريدون مهاجمة المسلمين، فشاور النبي ﷺ صحابته من المهاجرين والأنصار، فاستقر الرأي على أخذ المبادرة بالمسير إليهم، فتجهزوا وتجمعوا بظاهر المدينة للخروج إلى نجد.. وهي على نحو مرحلتين من المدينة، وبعد يوم من السير، حطوا الرحال في «نخل».. وهي موضع بنجد من أرض غطفان.. يطل عليه جبل قريب من النخيل.. وفي الجبل بقع حمراء، وأخرى سوداء، وبيضاء.. وفي المكان شجرة يقال لها ذات الرقاع اعتاد بعض العرب أن يتعبدها في الجاهلية، وكل من له فيهم حاجة يربط فيها خرقة أو رقعة، ومن هنا كانت التسمية.

جعل الصحابة، وفيهم صاحبنا أبو عبيدة، يتفقدون المكان، فاكتشفوا أن الجموع التي كانت قد احتشدت للهجوم عليهم، بادرت بالهروب إلى رءوس الجبال حين أحست بطلائع المسلمين، ويقال إن غطفان وأحلافها عادوا فتجمعوا، ووقفوا

مشفقين من قتال المسلمين الذين لم يجدوا حاجة إلى أن يبدأوا هم بقتال.. ويقال إنه حين نودى للصلاة بين المسلمين، وخشوا من أن يكر عليهم العدو المشرف عليهم، صلى النبي عليه السلام بأصحابه صلاة الخوف، ونزلت فيها الآية (١٠١) من سورة النساء، فقام عليه السلام بقسمة المسلمين شطرين.. جعل شطراً في مواجهة العدو الرابض، وشطراً خلفه - ﷺ، وبدأ فكبر وكبر الجميع وراءه، ثم صلى بمن خلفه ركعتين وسلم، ثم صلى بالشطرن الأمامي ركعتين وسلم.. وقد وصف أبو عبيدة بن الجراح، صلاة الخوف التي صلاها بهم النبي ﷺ في هذا اليوم، فجاء في مسند الإمام ابن حنبل، بسنده عن أبي عبيدة: كنا مع رسول الله ﷺ فصف صفاً خلفه، و صفاً موازى العدو، وقال إنه ﷺ كبر وكبروا جميعاً، فصلى بالصف الذي يليه ركعة، وصف موازى العدو، ثم ذهب هؤلاء وجاء هؤلاء، فصلى بهم ركعة، ثم قام هؤلاء الذين صلى بهم الركعة الثانية فقصوا مكانهم، ثم ذهب هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء أولئك فقصوا ركعة. وقد قيل إن إسناده ضعيف لانقطاعه.

وفي رواية أخرى مسندة إلى أبي عبيدة بن الجراح بمسند الإمام ابن حنبل، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فقاموا صفين، فقام صف خلف النبي ﷺ، وصف مستقبل العدو، فصلى رسول الله ﷺ بالصف الذي يليه ركعة، ثم قاموا فذهبوا فقاموا مقام أولئك مستقبل العدو، وجاء أولئك فقاموا مقامهم فصلى بهم رسول الله ركعة ثم سلم ثم قاموا لأنفسهم ركعة ثم سلموا ثم ذهبوا فقام مقام أولئك مستقبل العدو، ورجع أولئك إلى مقامهم فصلوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا. وقيل حديث صحيح.

وبعد يومين، وقد تحقق للمسلمين ما أرادوه من إظهار الهيبة لمن أرادوا مهاجمتهم، وآثرت غطفان وأحلافها السلامة، عاد المسلمون سالمين إلى المدينة بغير قتال.

## بدر الموعد

وكانت فى شعبان للسنة الرابعة للهجرة، طبقاً لرواية ابن إسحق وأرجح الروايات، وسميت بدر الموعد، لأنها كانت موعداً مضروباً بين المسلمين وقريش بناء على طلب أبى سفيان يوم أحد.. وكان الاتفاق على اللقاء فى بدر الصفراء.. حدده أبو سفيان وهو فى قمة نشوته مما حققوه فى أحد، فوقف يومها ينادى: «موعد بيننا وبينكم بدر الصفراء رأس الحول، نلتقى فيه فنقتل!»

ومع أن المسلمين تلاحقت عليهم الأحداث بعد أحد وحمراء الأسد، بين خيانات يوم الرجيع وبئر معونة، وبنى النضير وما كان منهم، والمسيرات المتتالية لصد من كانوا من القبائل قد تجمعوا لمهاجمة المسلمين، فإنهم لم يشاءوا أن يتخلفوا عن الموعد الذى ضربته قريش، ولم تأخذ المشاورة بين النبى ﷺ وصحابته كثيراً حتى اتفقوا جميعاً على الخروج إلى بدر الصفراء، أو بدر الموعد. وعلى النقيض، كان أبو سفيان وقريش على خوف ضارب فى أعماقهم أن يخسروا ما كسبوه فى أحد إذا خرجوا لبدر الصفراء، وإنهم لفى حيرتهم، تلقفوا نعيم بن مسعود الأشجعى الذى نزل مكة، فلما أحاطهم بأنه ترك المسلمين بالمدينة يعدون السلاح والكرع، خشى أبو سفيان من مغبة اللقاء، وجعل يتعلل بأن العام عام جذب لا يصلح للخروج، ولكنه يكره أن يخرج محمد وأصحابه ولا تخرج قريش، فيجترون عليها، فطلق أبو سفيان يحرض نعيم بن مسعود الأشجعى على العودة للمدينة وتخذيل المسلمين هناك، ويمنيه بهدية كبيرة توضع له لدى صديقه سهيل بن عمرو، وأنه يضمنها له.. وليس عليه إلا أن يلحق بالمدينة ليثبط المسلمين ويعلمهم أن قريشاً قد تجهزت لهم فى جمع كبير. ويروى الرواة أن نعيم بن مسعود الأشجعى لم يقصر يومها فى مهمته، فجعل لدى وصوله للمدينة، يردد للمهاجرين والأنصار أنه ترك أبا سفيان قد جمع الجموع وأجلب معه العرب، وأنه سيأتيهم بما لا قبل لهم به، وجعل يظهر إليهم النصيحة أن يقيموا ولا يخرجوا فلن يقلت منهم إلا الشريد!

على أن ما سعى إليه نعيم، واستبشر به المنافقون وبهود بنى قريظة، لم يفت في عضد المسلمين، فخرجوا - كما سلف - إلى حيث تجمعوا بظاهر المدينة، وفيهم إلى جوار الرسول ﷺ كبار الأنصار والمهاجرة، ومنهم صاحبنا أبو عبيدة ابن الجراح، ميمم شطر بدر الصفراء.

ولم تجد قريش بُدًا من الخروج بعد أن تأكد لها إخفاق التخاذيل الذي حرضت عليه الغطفاني، فخرجت كارهة في نحو ألفين ومعهم خمسون فارسًا، فنزلوا «مَجَنَّة» من ناحية «الظهران»، وضربوا مضاربيهم متظاهرين بأنهم جاءوا مصممين على الموعد الذي ضربوه يوم أحد.

وإن قريشًا لفي مضاربها، يأتيها معبد بن أبي مسعود الخزاعي. فينقل إليها أنه مر بالمسلمين ببدر الصفراء، بعد أن أخبره عنهم مخشى بن عمرو الضمري، وأنه وجدهم أهل هذا الموسم.. وأنهم تجمعوا في كثرة كثيرة بقضهم وقضيضهم.. فخشى أبو سفيان من مغبة اللقاء إذا دارت عليهم الدائرة، فوقف يقول لقريش: «يا معشر قريش.. لا يصلحن إلا عام خصب غيداق، نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن.. وإن عامكم هذا عام جذب.. وإنى راجع فارجعوا».

بادر القرشيون بللممة متاعهم وجمع غيرهم، وتسللوا راجعين إلى مكة، بينما لبث المسلمون ببدر الصفراء ثمانية أيام، قبل أن يعودوا إلى المدينة وقد أوفوا بموعدهم وتراجعت قريش وقامت عليها الحجة.

آب المهاجرون والأنصار مع الرسول ﷺ، آمنين سالين مجبورين إلى المدينة، وعين الرسول قريرة بأصحابه، يتذاكر عليه السلام ويتحرك لسانه بما أنزله إليه جبريل عليه السلام: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ [آل عمران: ١٧١ - ١٧٤].

## دومة الجندل

فى ربيع الأول بأوائل السنة الخامسة للهجرة، وردت الأخبار بأن دومة الجندل بالشام، شمال المدينة، قد صارت مركز تجمع لقبائل قست قلوبها وأخذت تبث المظالم وتقطع طرق القوافل، وتظلم من يمر بها!!.. وأنه لم يفهم أنهم يتعرضون لتجار الأنباط الذين يحملون الميرة والزيت والدقيق إلى المدينة، وإنما تزايدت أطماعهم حتى باتوا يفكرون فى تهديد أطراف المدينة!

تشاور النبى عليه السلام مع صحابته، وقر الرأى على أن كسر شوكة هؤلاء يوقف الأخطار التى تتهدد المدينة وقوافل التجارة الخارجة منها أو القادمة إليها، ويكسر زهو قيصر الذى يتزايد يوماً بعد يوم.. عزم النبى ﷺ على الخروج، وترك على المدينة سبّاع بن عُرفطة الغفارى، وخرج معه عليه السلام نحو ألف من أصحابه، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح، وكانوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً، ومعهم دليل ماهر من بنى عُذرة يقال له «مذكور العُذرى».. وكان هذا الدليل خبيراً بهذه البقاع، وساروا حتى وصلوا إلى دومة الجندل، وهناك بث المسلمون سراياهم، وعاد محمد بن مسلمة برجل من القوم، فأتى به إلى النبى ﷺ فسأله عن أصحابه، فأجابه بأنهم هربوا بأمس لما سمعوا بمقدمه، فأكرم المسلمون وفادته، وعرض الرسول الإسلام عليه أياماً فأسلم، ثم عاد المسلمون بلا قتال، وفى طريق عودتهم وادع ﷺ عُيَيْنة بن حِصْن الفزارى، أن يرعى بتغلمين - وهى موضع فى بنى فزارة - وما والاها إلى «المراض» - وهى واد على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة - بسبب أن بلاد «عُيَيْنة» كانت قد أجدبت، فصرح له الرسول عليه السلام أن يرعى بتغلمين إلى المراض.

## فى غزوة الخندق أو الأحزاب (شوال سنة ٥ هـ)

جرت تسمية هذه الغزوة بغزوة الخندق، تعبيراً عن الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة لصد هجوم الأحزاب الذين أتوا لضرب الإسلام والمسلمين بالمدينة، فهى لم تكن غزوة من المسلمين بل كانت دفاعاً حول المدينة عن دار هجرتهم، وإن سُميت غزوة، وإنما كانت غزوة من الكفار الذين تأمروا وتجمعت أحزابهم لاستئصال الإسلام، ومن هنا سُميت بغزوة الأحزاب.. وهى القبائل التى هذه الغزوة، أنها كانت «غزوة اليهود» الذين حركوا الأحداث وجمعوا القبائل وحرصوها للهجوم على المدينة.. فاليهود واقعاً هم أصحاب ومدبرو ومرتبو ومعدو هذه الغزوة.. ومن الغريب اللافت أن يحسبها بعض المستشرقين ضمن الغزوات التى يحصون عددها على الإسلام بزعم أنه دين غزو، وأنه انتشر بحد السيف! ويجمع الرواة على أن اليهود، وخاصة بنى النضير الذين أجلوا عن المدينة فى أعقاب أحد وحمراء الأسد، هم أصحاب فكرة هذه الغزوة (اليهودية) التى تسترت بالقبائل العربية - وعلى رأسها قريش التى استجابت لتحريضها.. فيروى أن لقيفاً من أشرف اليهود ووجه بنى النضير.. فى مقدمتهم حى ابن أخطب وأبو رافع سلام بن أبى الحقيق، وكنانة بن أبى الحقيق، وهوذة بن أبى الحقيق، ومعهم هوذة بن قيس الوائلى من الأوس بن بنى خطمة، وأبو عامر الراهب، وأبو عمارة، ونفر من بنى وائل، قد جمعوا أمرهم وشدوا الرحال للقاء زعماء قريش التى يعلمون أنها لن يهدأ لها بال حتى تستأصل شأفة محمد - عليه الصلاة والسلام - والإسلام!

وفى دار الندوة، بظاهر الكعبة، التقى هؤلاء مع أبا سفيان وجمعاً من بعض زعماء قريش، حيث طفق زعماء بنى النضير يبتئون مرامهم، ويتعاهد هذا الملاً على قتال محمد ﷺ ويقرونون هذا الحلف بالدخول إلى الكعبة والالتصاق بأستارها

والقسم على ألاّ يخذل بعضهم بعضاً، ولا يغادر اليهود ومن معهم إلاّ بعد أن يتواعدوا مع قريش على موعد ضربوه لتحزيب القبائل العربية لتكون معهم في مداهمة الرسول عليه السلام والمسلمين بالمدينة.

بادر الرهط اليهودى، فذهبوا إلى غطفان، من قيس وعيلان، فدعوهم إلى حرب الرسول عليه السلام، وحرصوهم مؤكدين لهم أنهم وقريشاً سوف يكونون معهم، فوعدوهم وبنى سليم بالسير معهم إذا خرجت قريش، بينما لم يضيع زعماء قريش وقتاً، فجعلوا يحرضون على الخروج، وأوفدوا وفودهم إلى القبائل، فجاءت الأخبار بأنهم لبوا النداء وسوف يخرجون، وعقدت قريش اللواء لعثمان بن طلحة، وتحركوا من شمال مكة باتجاه المدينة في ثلاثمائة فارس ونحو ألف وخمسمائة بعير.. على رأسهم أبو سفيان.. تخايله أحلامه وهو ينظر فى خيلاء إلى الجموع التى أربت مع من تبعهم من الأحابيش على أربعة آلاف مقاتل!

وعند «مَدَّ الظهران»، التقت جموع قريش بنى سليم التى خرجت فى نحو سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية، وهو أبو أبى الأعور.. واستأنفوا السير معاً للقاء باقى الأحزاب على أطراف يثرب.

وعلى طرق الاقتراب من المدينة، تجمعت الأحزاب والقبائل التى حرصتها اليهود - برجالها وفرسانها وقضها وقضيضها.. قبيلة بنى الأسد بقيادة طلحة ابن خويلد الأسدى! وقبيلة غطفان فى نحو ألف دارع يقودهم عيينة بن حصن ابن حذيفة! وأشجع فى نحو أربعمائة فارس ودارع يقودهم مسعود بن ربيعة! وبنو مرة فى نحو أربعمائة يقودهم الحارث بن عوف بن أبى حارثة.. حيث بادرت هذه الجموع، فور التقائها، إلى التحرك ملتفة إلى شمال المدينة حيث موعد ومكان اللقاء مع بنى النضير الآتية من خيبر، واختاروا هذا المكان بتحريض اليهود الذين دلوهم على أنه أنسب مكان لمهاجمة المدينة!

وبشمال المدينة، فى بطن جبل أحد وما حوله، تجمعت قبائل الأحزاب، بأقصى الشمال إلى يسار أحد ضربت قريش مضاربها هى ومن معها من الأحابيش

- «برومة» ووادى العقيق بين «الجرف» و«زغابة».. بينما عسكرت غطفان إلى يسار وجنوب مضارب قريش، وإلى يسارها إلى الجنوب قليلاً قوات كنانة وسليم وبنى أسد وفزارة وأشجع وبنى مرة وبقية الأحزاب الذين نيفت عدتهم على عشرة آلاف فارس ودارع أخذوا يتهيئون للهجوم على المسلمين!!

وفى المسجد النبوى بالمدينة. وبعد أن تجمعت الأنباء بحشود القبائل، التقى رسول الله ﷺ كبار صحابته من الأنصار والمهاجرين، فاستقر الرأى، على أنه لا سبيل للأحزاب للإغارة على المدينة إلا من الناحية المكشوفة من الشمال.. وهو المكان الذى دلت الأخبار على أن الأحزاب أخذت تتجمع فيه.. فطفق المسلمون يتجمعون حول رسول الله.. وإنهم لفى مشاوراتهم عما عساه أجدى لصد هؤلاء المتربصين، أشار سلمان الفارسى بحفر خندق بشمال المدينة - جعل يصف كيف كانوا يحفرونه بأرض فارس إذا تخوفوا الخيل، فلقيت فكرته ترحيباً من الرسول ﷺ والمسلمين.

وبعد استطلاع المنطقة فى اتجاه تجمع حشود الأحزاب، اختار المسلمون للخندق المسافة من «مذاذ»: أطم لبنى حرام بن سلمة غربى مسجد الفتح شمال المدينة، إلى «ذباب» إلى «راتج»: جبل إلى جبل بنى عبيد غربى بطحان.. هذا وفى الوقت الذى طار فيه المسلمون لجمع المكاتل والمعاول للحفر، تسرب المنافقون متسللين عائدين إلى دورهم فى انتظار الشماتة التى أضمرتها قلوبهم!

لم يكن حفر الخندق الذى اشترك فيه رسول الله ﷺ بنفسه، بأقل من صور البطولة الرائعة التى سطرته صفحات هذه الملحمة، فقد طويت هذه الغزوة التى دبرها اليهود وتزعمتها قريش - على صفحات بطولة رائعة سطرها المسلمون وشارك فيها صاحبنا المجاهد الأمين أبو عبيدة بن الجراح، فى حفر الخندق لإقامة عائق حول المدينة لصد الكفار عن اقتحامها.. وطوال فترة الحصار الذى جرت فيه مناوشات وهجمات من الكفار لاختراق الخندق، وصدّها المسلمون فى بطولة باسلة صورتها مشاهد عديدة. فيها من أصيب وجرح، وفيها من

أصيب - كسعد بن معاذ - بسهم أدى من بعد إلى وفاته ، ولكنهم ظلوا بكل ما بهم من جراح ، وما يعانونه من مرابطة وراء الخندق داخل المدينة ، أو في باقى الثغور المحيطة احتياطاً لأى التفاف للاختراق.. ظلوا على صمودهم وجهادهم ، تاركين بيوتهم وعائلاتهم من خلفهم ، منصرفين إلى حمل الأمانة التى احتملوها من يوم أن أعطوا ظهورهم للدنيا ومغرياتها وزينتها وشهواتها ، وآمنوا بالله الواحد الأحد ، وهاجروا إليه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده لحماية هذه الدعوة من طغيان الكفار الذين أرادوا إطفاءها !

وإن المسلمين لفى مرابطتهم ودفعهم لغارات الكفار المتتالية ، فى المواضع التى ظن الكفار أن بها ضعفاً ، أو عدم كفاية فى الحراسة ، لم يتوقف يهود بنى النضير عن استكمال مؤامرتهم وتحزيبهم ضد المسلمين . خرج كبير بنى النضير : حُيى بن أخطب ، فتسلل إلى حصون بنى قريظة للقاء زعيمهم كعب بن أسد القرظى.. وتقول الروايات إن كعباً أوجس منه خيفة ، وقال له : ويحك يا حُيى : «إنك امرؤ مشنوم ، وإنى قد عاهدت محمداً ، فلست بناقض ما بينى وبينه ، ولم أر منه إلا وفاءً وصدقاً».. وما زال الشد والجذب بينهما حتى استدرجه حُيى قائلاً : «ويحك يا كعب ، جئتك بعزّ الدهر ببحر طام (مرتفع) ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها ، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من «رومة» ، وبغطفان على قادتها و سادتها ، حتى أنزلتهم إلى جانب أحد.. قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه».. فقاومه كعب قليلاً ، إلا أن ابن أخطب لم يزل به يحضه ويغريه حتى لان فى النهاية لما يريده منه !

أتت الأخبار إلى النبى عليه السلام بأن يهود بنى قريظة قد نقضوا العهد ، وبعث الرسول ﷺ الزبير بن العوام للاستيثاق من ذلك ، ثم جمع النبى إليه السعدين : سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد ، ومعهما أسيد بن حضير وعبد الله ابن رواحة ، فأنهى إليهم ما وصله من أنباء ، عن نقض بنى قريظة لعهدهم ، وعزمهم الاشتراك فى محاربة المسلمين ، واتفقت الآراء على أن يذهب هؤلاء

الأربعة إلى حصون بنى قريظة لمقابلة كعب بن أسد وبنى قومه من اليهود.. وهناك ظهر من الخزى الذى بدا عليهم أنهم بالفعل نقضوا عهدهم، فطفق أسيد ابن حضير ومن معه يناشدونهم أن يحترموا العهد الذى أبرمه الرسول ﷺ معهم، وألاً يطيعوا حُيى بن أخطب، لكن كعب بن أسد يمضى فى تناكثه، ولا يعى تحذيره بأن قريشاً إذا انصرفت منهزمة فستتركه وحيداً فى عقر داره، وجعل يرد مستكبراً بما كان منه يوم بُعث، ويستطرد هو واليهود فى تناولهم حتى أيقن وفد الرسول ﷺ بأنه لم يعد لإثنائهم عن الخيانة من سبيل!

كان حصار الأحزاب للمسلمين امتحاناً طال أمده، وإلى جانب البطولات التى سطرها المجاهدون الأبرار، وفيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح، فإن نساء المسلمين كان لهن نصيب غير منكور، ووردت الروايات أن صفية بنت عبد المطلب عمّة النبي وأم الزبير، قد استطاعت ومن معها بالدار أن تقضى على يهودى تسلل إليهن، ولكن إلى جانب البطولات العديدة التى لا يتسع المجال لسردها هنا، ظهرت لدى البعض بوادر وهن وقلق، فطلب بعض بنى حارثة العودة بذريعة رد المتسللين من الأحزاب عن ديارهم لأنها مكشوفة، وغطفان إزاءها، وليس لهم من يردهم عن الذرارى والنساء، ولم يردهم عما أزمعوه إلا غضب سعد بن معاذ الذى عنفهم على ما يطلبونه!

تتوالى الأحداث، فما كادت تصل أنباء خيانة بنى قريظة لعهدهم، حتى كثفت الأحزاب هجومها، وأصيب سعد بن معاذ بسهم دعا الله إن وضعت الحرب مع قريش، أن يجعل هذا الجرح شهادة له وألاً يميته حتى تقر عينه فى بنى قريظة الذين خالفوا وعدهم.. وقد كان، ولم يمت سعد الشهيد إلا بعد أن استوفى المسلمون حقهم من بنى قريظة بعد رحيل الأحزاب!

لم يتوقف المنافقون، عن بث الخذلان خلف صفوف المسلمين بالمدينة، يشجعهم ما أظهرته بنو قريظة من غدر وخيانة، وجعل بعضهم يخوف المسلمين بأن بيوتهم قد صارت عورة من خلفهم، ويتجراؤون حتى يعايروهم بأن صاحبهم

لم يعدهم إلا غروراً.. وتتجمع الغيوم حتى يزلزل البعض زلزلاً شديداً، ويركب البعض الهم والحيرة.. هنالك يتنزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ، فيوحى إليه من آيات ربه: ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَسِتْتَدِينُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّا بِيَوْمِنَا غُورَةٌ وَمَا هِيَ بِغُورَةٍ إِذْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١٣].

وبرغم كل هذه الغيوم والصعاب، لم تلن قناة لصاحب العزم الأكبر وكوكبة المجاهدين الأبرار الذين صمدوا وجاهدوا معه.. فطفقوا يصدون في ثبات إغارات الكفار التي تتابعت حتى لا تترك للمسلمين فرصة للراحة، ولا للصلاة.. ويزداد القلق على الذراري والنساء بالمدينة، فيدعو النبي إليه زيد بن حارثة، وسلمة ابن أسلم، ويجعل مع زيد ثلاثمائة رجل، ومع أسلم مائتين، ليحرسوا مَنْ خلفهم من النساء والصبيان والذراري بالمدينة.

وإن المسلمين لفي هذه الشدة، وقد تكاثفت الأخطار من حولهم، ترسل غطفان في طلب الصلح لقاء ثلث ثمار المدينة، ولكن النبي عليه السلام لا ينفرد بإجابة، ويدعو إليه السعديين: سعد بن معاذ وسعد بن عباد، فيطلعهما على ما تطلبه غطفان، فيأبى الأنصاريان إلا أن يسألا الرحمة المهداة ﷺ: «يا رسول الله، أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا؟ فلما قال ﷺ لهما: «بل شيء أصنعه لكم». قالوا: «إن كان أمراً لم تؤمر به ولك فيه رأى فامض له سمعاً وطاعة». فقال عليه السلام لهما: «لو أردت ما شاورتكما.. إني رأيت العرب قد رمتكم عن سهم واحدة، وكالبوكم من كل جانب!». ولكن السعديين يذكران للنبي ﷺ ما كانوا عليه من الشرك حتى أعزهم الله بالإسلام، ثم يختمان عبارتهما قائلين: «أفحيين أكرمنا الله تعالى

بالإسلام، وهدانا له - وأعزنا بك وبه - نعطيهم أموالنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة.. والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم».. فارتاح النبي ﷺ واغتبط لما رد به أصحابه من الأنصار على عرض غطفان.

وإن النبي ﷺ لفي تحنثه ودعائه إلى ربه أن يهزم الأحزاب، مستغرفاً في صلاة خاشعة، يستأذن للقائه نعيم بن مسعود الغطفاني صاحب الدور المقيت الذي رأيته حين كلفه أبوسفيان بأن يذهب إلى المدينة ليفت في عضد المسلمين ويخذلهم حتى لا يخرجوا إلى بدر الصفراء أو بدر الموعد، وكيف قبل المهمة يومها وأداها وجعل يلوح للمسلمين بأن قريشاً قد تجهزت لهم في جمع كبير، وأنه من ثم لن يفلت منهم إذا التقوا إلا الشريد.. فما الذي أتى به اليوم ينشد لقاء الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام؟

لم يجد ﷺ بأساً من لقائه، فإذا بعدو الأمس قد أفاء الله عليه بالإسلام وأسلم، أبدى ذلك للرسول ﷺ، وأبدى معه أن قومه غطفان لم يعلموا بعد بإسلامه، وطلب من النبي ﷺ أن يكلفه بما يشاء، فلم يزد عليه الصلاة والسلام على أن قال له: خذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة!

ولكن نعيماً الغطفاني آلى على نفسه أن يجاوز ما طلب منه، فغذ خطاه إلى حصون بنى قريظة بالمدينة، وكانت صلته بهم وثيقة، ينادمهم ويسامرهم ويسامرونه في الجاهلية، فجعل يزرع الشك في نفوسهم ماذا هم فاعلون إذا انصرفت قريش وغطفان اللتان تحالفتا معهم وتركوهم إياهم وحدهم يواجهون محمداً في المدينة؟! فلما وجم القرظيون وداعبهم الخوف، سألوه النصح ماذا عساهم أن يفعلوا؟ فأشار عليهم نعيم بالأ يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا رهناً من أشرفهم يستوثقون به ألا يبرحوا الحصار حتى يناجزوا محمداً.. فراقت لهم الفكرة، واتفقوا مع نعيم أن يكتموا ما قام به.

لم يضيع نعيم وقتاً، فانتقل من حصون بنى قريظة، إلى مضارب قريش، حيث لقي أباسفيان في نفر من رؤوس قريش، فذكرهم بوده وإياهم، وقفى بأنه

سمع ما رأى واجباً عليه أن يبلغهم به. ولما اطمأن إلى تحرك أشواق القرشيين لمعرفة ما جاء به، أسر إليهم أن يهود بنى قريظة قد ندموا على انقلابهم على محمد، وأرسلوا إليه من يبدي ندمهم على التحالف ضده، وأنهم فى سبيل ذلك عرضوا عليه أن يأخذوا رهينة سبعين رجلاً من أشرف قريش وغطفان، ليسلموهم للمسلمين لضرب أعناقهم، ثم يكونوا عوناً لهم بعد ذلك على قريش وغطفان.

وكما فعل نعيم مع قريش، فعل مع غطفان، وسألهم كما سأل قريشاً أن يكتموا عنه، ومضت خطة الغطفاني كما رسمها، فقد طلبت اليهود وقد ركبتهم الهواجس، طلبت رجالاً كرهان من كل من قريش وغطفان، فقر لديهما ما نقله نعيم أن بنى قريظة نوت الغدر بهما، وأنها ستطلب رهائن لإرسالهم إلى محمد لضرب أعناقهم ثم لينقلبوا ضد قريش وغطفان. فكان أن وقع الخلف بين هذا الثلاثى الرئيسى الذى يشكل قوام الأحزاب التى اجتمعت على المسلمين، وداخلتهم ظنون فى بعضهم البعض لا سبيل إلى دفعها، ولم تفلح السفارات المتبادلة فيما بينهم فى إزالة ما انزع من سوء الظن!

تصاعدت الظنون، وضرب الشتات فى الأحزاب، وما هى إلا ليلة باردة شاتية، خيم فيها الظلام البهيم على مضارب قريش والأحزاب بشمال المدينة على الناحية المقابلة من الخندق، إلا انفتحت ينابيع السماء، وهطلت الأمطار غزيرة مداراة، وانهمرت السيول، وعصفت الرياح.. وجعلت الريح تكفى قدور الأحزاب، وتبعثر أوانيهم وتطيح بخيامهم، وتصيب بالذعر خيولهم وإبلهم.. حتى هتكت القباب، وكفئت القدور، وتقطعت الأوتاد، ودفن الرجال.. وتفشى الذعر بين الأحزاب، حتى وقف أبو سفيان منادياً: «يا معشر قريش، يا معشر الأحزاب.. إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك القراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذى نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون.. ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإنى مرتحل».. ثم انطلق أبو سفيان وقد أمسك ناراً بيده، وحوله عصبته، وقد بدأت الأحزاب فى التفرق وهو ينادى فيهم: الرحيل الرحيل!!

وإن النبي عليه الصلاة والسلام، لهو في مناجاته وتحننه وابتهاله ودعائه  
وشكره لربه على ما أفاء به على المسلمين، يتنزل عليه الروح الأمين، فيوحى إليه  
الآيات من ١٤ إلى ٢٥ من سورة الأحزاب، التي جاء في آخرها: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ  
كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾  
(الأحزاب ٢٥).

\* \* \*

## انقشاع كابوس بنى قريظة بعد هزيمة الأحزاب

(ذو القعدة / ذو الحجة - ٥هـ)

المدينة وقد انزاح كابوس الأحزاب! . بيد أن كابوس الحصار وأثره وما صاحبه واقترن به جاثم مخيم على النفوس! لم يسبق أن تعرضت المدينة ولا تعرض الإسلام والمسلمون لخطر كهذا الخطر الذى أحاط بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم!.. لولا عناية الله ومدده الذى أزاح الأحزاب، لنال المدينة والإسلام والمسلمين شر مستطير هائل يكاد يبلغ حد الفناء!.. عناية الله سبحانه وتعالى هى التى خيبت سعى اليهود والأحزاب وردت الذين كفروا بغيظهم فلم ينالوا خيراً، وكفت المؤمنين القتال ورد المتأمرين بغيظهم فلم ينالوا ما تمنوه!.. إن خطاب أبى سفيان ينضح بغل لا ينفد، وبوعيد لا يخطئه بصير.. إنه يتوعد الإسلام والمسلمين بيوم كيوم أحد يضر أن يبقروا فيه النساء، وإن السعى الذى خاب لهؤلاء هذه المرة مجدول كامن فى نفوس هؤلاء الطغاة، واللؤم الذى طويت عليه قلوبهم كفيل بأن يردهم واليهود إلى إعادة المحاولة التى أخفقت!.. لن يهدأ لهؤلاء بال حتى يصيبوا من الإسلام والمسلمين ما أرادوه.. لم يعد فى الإمكان أن تطمئن المدينة للغادرين الذين خانوا العهد وتحالفوا مع المغيرين لضرب المسلمين من خلفهم!.. كيف يمكن أن تآمن المدينة من بعد إلى بنى قريظة التى خانته وغدرت؟!.. وكيف يغضى المسلمون عن هذا الخطر الجاثم بالمدينة الداعى لأطماع الكافرين أن تلتئم معهم لمعاودة الكرة مرة ثم مرة لضرب المسلمين وتصفية دعوة الإسلام والقضاء عليها؟!.. إن جُرم الذين خانوا العهد وغدروا لأشد خطراً وأثراً ممن جاءوا مغيرين من خارج المدينة!.. وإن أمر اليهود لم يعد فقط أمر جزاء وجب وحق عليهم لقاء خيانتهم وغدرهم وتآمرهم مع العدو القادم من أشتات الجزيرة العربية، وإنما هو خطر قابح بأحشاء المدينة يتحين الفرصة

لضرب مجتمع الهداية والإيمان الذى أخذ يتنامى فى ربوعها!.. وإن السكوت عن عقاب الخيانة لم يعد سكوتاً فقط عن جزاء واجب، وإنما بات تفریطاً يجرئ الكفر والكافرين والمنافقين على معاودة الكرة والمضى فيما يبغون ويعرض الإسلام والمسلمين لأخطر العواقب!!.. إن هذه الخواطر لتتغشى المسلمين وهم يحملون متاعهم وعتادهم ويتخذون طريقهم للعودة إلى بيوتهم وأسرهـم التى خلفوها أياماً طوَّالاً من ورائهم ليصدوا عن المدينة إغارة الكفر والكافرين، فدبر اليهود لضرب ظهورهم ومداهمة النساء والذرارى - وفعلوا!!..! وإن النبى - عليه السلام - لفى هذه الخواطر ذاتها يسترجع ما تكبده المسلمون من شهداء ومن خسائر وما حاق بهم من مخاطر - يلم به هاتف الوحى أن لا بد من تصفية أمر بنى قريظة، فلم يعد فى قوس الصبر منزع، ولا عاد بالإمكان تركهم وما فعلوا ويفعلون!!.. هنالك دعا النبى - عليه السلام - من يؤذن فى الناس بما أوحى به إليه..

أذن المؤذن فى المسلمين، ألا يصلوا العصر إلا فى بنى قريظة.. فخرج المسلمون تلبية لنداء الرسول ﷺ، ويروى الواقدى فى المغازى، أن سيرهم إلى حصون بنى قريظة كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة للسنة الخامسة للهجرة، وحمل اللواء على بن أبى طالب، وخرج فيمن خرج من بنى عبد مناف: عثمان ابن عفان، وعكاشة بن محصن، والزبير بن العوام. ومن بنى زهرة: عبد الرحمن ابن عوف، وسعد بن أبى وقاص. ومن بنى تيم: أبوبكر الصديق وطلحة بن عبيد الله. ومن بنى عدى: عمر بن الخطاب. ومن بنى فهر: أبو عبيدة بن الجراح. ومن بنى عامر بن لؤى: عبد الله بن مخرقة، كما خرج زعماء الأوس والخزرج.. سعد بن معاذ، وأسيـد بن حُصَير، ومحمد بن مسلمة، والحباب بن المنذر، ومعاذ ابن جبل، وسعد بن عباد، وآخرون. ويقول الرواة إن عليا سبق إلى الحصون فى رُهط من المهاجرين والأنصار، وغرز الراية، بينما انطلق اليهود يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه، وتراموا مع سعد بن أبى وقاص والمسلمين ساعة، ويقول الرواة إن الحصار استطال خمسا وعشرين ليلة، لم يقع فيها إلا التراشق بالنبل

والحجارة، وانتهى فى رواية طويلة بنزول يهود بنى قريظة على حكم سعد ابن عبادة الأوسى، لما كان بينهم وبين الأوس من تحالف، ونسوا فى هذا الاختيار ما فعلوه معه حين أوفده الرسول ﷺ إليهم ومعه أسيد بن حُضير وعبد الله بن رواحة لإثنائهم عن تحالفهم مع قريش والأحزاب ضد الرسول والمسلمين، ونسوا ما أبدوه يومها من خسة ولجاجة، ونسوا مشاتمهم له وسبهم الرسول ﷺ.. والأثر الذى لا بد تركته لديه أفعالهم وما أظهروه من غدر وخيانة وخسة!!

وإذا كان بنو قريظة قد تنكبوا الصواب فى اختيارهم لسعد بن عبادة للنزول على حكمه، فإن المسئول الأساسى عما تداعى فى هذا اليوم هو الدور الكريه الذى باشره حُيى بن أخطب زعيم بنى النضير، الذى لم يكفه أنه خرج سالماً مع قومه فى أعقاب ما كان منهم فى أحد، فارتد إلى تحريض قريش والأحزاب وبنى قريظة على المسلمين للقيام بغزوة الأحزاب واستئصال شأفة الإسلام والمسلمين. فهذا الرجل حنث أكثر من مرة بعهدده وعهد قومه مع الرسول ﷺ - والمسلمين، ولم يكتف بحنثه فظل وراء بنى قريظة حتى أثناهم عن عهدهم، وحزبهم مع قريش وغطفان والأحزاب ضد المسلمين، ولو قيض لهذا التحالف الانتصار لاستأصلوا المسلمين وضربوا الإسلام فى مقتل لا يعلم إلا الله أثره ومداه.

ومع أن كل المؤشرات كانت تعاضد الحكم الذى ارتآه سعد بن عبادة، فإن الموقف على شدته لم يخل من مشاهد استئنت النساء والذرارى، وتركت على سبيل المثال عطية القرظى ضمن جملة من لم تخضر ذقونهم، وعاش وأسلم، وهو مذكور ضمن الصحابة، كما لاذ رفاعة بن سموأل القرظى بأمر منذر سلمى بنت قيس: إحدى خالات الرسول ﷺ، فوهبه لها، وأسلم وله صحبة ورواية، كذلك وهب الرسول ﷺ لثابت بن قيس بن الشماس - الزبير بن باطا وولده وكانت له يد عليه فى الجاهلية فاستحياهم، ومن هؤلاء عبد الرحمن بن الزبير أسلم وله صحبة. ويروى أنه نزل من الحصون ثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد، فأسلموا، وأمنوا على أنفسهم وأهلهم وأموالهم ولم يمسسهم أحد بسوء،

ونزل كذلك عمرو بن سُعدَى، وكان قد رفض أن يساير بنى قريظة فى غدريهم برسول الله ﷺ، وقال: لا أغدر بمحمد أبداً. وقال النبي ﷺ لأصحابه حين رآه: رجل نجاه الله بوفائه! ويقال إنه حينما ترك حصونهم بات فى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة، ثم ذهب إلى حيث لم يعرف أحد.

وبهذا اليوم، فى ذى الحجة من السنة الخامسة للهجرة، لم يعد هناك وجود لليهود بالمدينة، بعد أن كان قد أجلى سلفاً بنو قينقاع ثم بنو النضير - وعلى ذلك فليس يستقيم ما ذكرته بعض المصادر من أن المؤتمر الدينى الثلاثى الذى انتدب فيه أبو عبيدة بن الجراح للذهاب مع وفد نجران - كان فى العام العاشر أو التاسع للهجرة، فلم يكن لليهود وجود بالمدينة فى هذا الوقت - ناهيك عن أن يشاركوا هذه المشاركة الكثيفة التى نقلتها المصادر عن الحوار الذى دار مع المسلمين ومع وفد نجران يوم أوفد الرسول - عليه السلام - معهم أمين الأمة أبا عبيدة بن الجراح!

### أبو عبيدة

#### الأمير إلى ذى القصة

فى ربيع الأول من السنة السادسة للهجرة، أتت الأخبار للمدينة بتحريك بعض القبائل طمعاً فى المسلمين بعد ما شاهدوا من حصار الأحزاب لهم، فاجتهد المسلمون فى بث البعوث والسرايا للموادعة وتأمين أنفسهم فى المدينة، فخرجت سرية من أربعين رجلاً بقيادة عُكاشة بن محصن إلى القمْر.. ماء لبنى أسد على ليلتين من أعمال المدينة على طريق نجد.. وعادت السرية سالمة بلا قتال بعد أن تسامع بها الناس.. ثم خرج محمد بن مسلمة فى عشرة من الصحابة إلى بنى مَعوية وبنى غُوَال «بذى القصة» على طريق الرَبْدَة من المدينة.. وإذ هم فى مضجعهم بليل، أصدق بهم نحو مائة من بنى ثعلبة وأحاطوا بهم من كل جانب، وأعملوا فيهم القتل، وسقط محمد بن مسلمة بجروح غائرة ظنوا بها موته فتركوه، فأنقذه عابر سبيل من المسلمين وحمله إلى المدينة!

انتدب الرسول ﷺ أبا عبيدة بن الجراح أميراً على جماعة من المسلمين، وأرسلهم في أثر الجناة، بيد أنهم كانوا قد فروا بفعلتهم.. ثم أتت الأخبار في ربيع الآخر ٦ هـ - بأن بلاد أنمار وبنى ثعلبة الذين عدوا على من كانوا مع محمد بن مسلمة، قد أجديت.. وأن بنى ثعلبة وأنمار وبنى محارب قد تجمعوا لشن إغارات على سرح (مرعى) المدينة.. فانتدب الرسول ﷺ أبا عبيدة ابن الجراح أميراً على أربعين رجلاً، إلى موضع تجمعهم في «ذى القصة».. فسار أبو عبيدة بمن معه ليلاً، وأشرف على القوم في عماية الصبح، فأخذتهم المباغتة فهربوا إلى رءوس الجبال، وعاد أبو عبيدة بمن معه ظافرين إلى المدينة، وفي صحبتهم أسير ما لبث أن انفتح صدره للإسلام، فأسلم بين يدي الرحمة المهداة عليه الصلاة والسلام.

## غزوة بنى المصطلق

### في المرزسيح

اتفق المؤرخون على أن هذه الغزوة كانت في شعبان على مشارف رمضان، واختلفوا في السنة، فمنهم من ذكر - كالذهبي في تاريخه وابن سعد في طبقاته - أنها كانت في السنة الخامسة للهجرة، بينما اجتمع معظم المؤرخين كابن هشام في السيرة وابن الأثير في الكامل وابن سيد الناس في السيرة المعروفة بعيون الأثر - على أنها كانت في السنة السادسة للهجرة، وبذلك أخذ الدكتور محمد حسين هيكل في «حياة محمد ﷺ»، والدكتور شوقي ضيف في «محمد - خاتم المرسلين»، وهو ما أخذت به في «السيرة النبوية في رحاب التنزيل»<sup>(١)</sup>. واتفقت المصادر على أن هذه الغزوة التي اشترك فيها - مع الرسول عليه السلام - المهاجرون والأنصار، ومنهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح - كانت بسبب ما أتت به الأخبار أن الحارث بن أبي ضرار سيد بنى المصطلق من خزاعة،

(١) السيرة النبوية في رحاب التنزيل - رجائي عطية - المجلد الرابع ٨٢/٤.

قد جمع قومه مع من استطاع جمعهم من العرب - عند «المُرَيْسِع».. وهو ماء لبني خزاعة بينه وبين «الْفُرْع» من أعمال المدينة - مسيرة يوم، وأنه يتهيأ بالحشود التي جمعها ويحلفائه من بني مدلج إلى حرب الرسول عليه السلام بالمدينة. وتأكدت الأخبار بما عادت به العيون التي أرسلت لاستطلاع الأمر. وفي شعبان، تجمع المسلمون بظاهر المدينة، يتقدمهم النبي ﷺ، ومعه كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وفيهم صاحبنا أبو عبيدة، إلى حيث تجمعات بني المصطلق وحلفائهم، وقد خالط من خرجوا من المجاهدين، فريق كبير من المنافقين، نفاقاً أو لمغانم يطمعون فيها، بينما طويت صدورهم على نقيض ما يظهرون، وقد تجلى هذا النفاق في أعقاب النصر المؤزر الذي حققه المسلمون على الحشود المجتمعة ضد ماء المُرَيْسِع، وكانت بداياته ما شجر على شرب الماء حيث تدافع الناس وبادر أحد المنافقين لتحريض الأنصار والمهاجرين، حتى كاد الشر يقع بينهما لولا حكمة ومبادرة الرسول ﷺ، بينما لم يطق زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول - لم يطق صبراً على هذا النصر، وأوجس خيفة من أثره في زيادة نفوذ الرسول ﷺ بالمدينة، فجعل ابن أبي بن سلول يسر لمن حوله من المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأضمرُوا سواه: «قد نافرنا وكاثرونا في بلادنا، والله ما عدونا وجلابيب قريش ما قال القائل: «سمن كلبك يأكلك!» ثم طفق يذيع في الناس: «والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل! هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم حتى استغنوا!.. وكثر الشر بتحريض ابن أبي بن سلول ومن جرى مجراه من المنافقين، حتى أشار البعض باستئصال شأفته، فذهب ابنه عبد الله طالباً إلى النبي ﷺ أن يوكل إليه هو قتل أبيه إن كان لا بد من قتله، لأن نفسه لن تدعه ينظر إلى قاتل أبيه يمشى في الناس فيقتص منه فيكون بذلك قد قتل مؤمناً بكافر، ولكن النبي ﷺ يفرخ روعه، وكان صادق الإسلام على نقيض أبيه، ويقول له: «إننا لا نقتله بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

وبينما أثمر زواج الرسول ﷺ من جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار زعيم بنى المصطلق، في حقن الخلافات.. حتى أطلق المسلمون أسراهم من بنى المصطلق احتراماً لهذه المصاهرة، فإن المنافقين لم يتوقفوا عن دسهم وإطلاق الشائعات الباطلة فيما عرف بحديث الإفك، وليس موضوعنا هنا، ولكن ذكرناه وغيره تدليلاً على سوء أثر النفاق والمنافقين، وفي شأنهم نزلت الآيات ١- ٨ من سورة «المنافقون»، ثم الآيات ١١ - ٢٠ من سورة النور.

### المجاهد الحكيم الحليم فى عهد الحديبية (ذو القعدة ٦ هـ)

مضت الأعوام عاماً وراء آخر، فى مجاهدة وجهاد، والمهاجرون مغربون عن ديارهم فى مكة، محرومون من الحج أو الاعتمار إلى البيت الحرام.. ومع تزايد الأشواق، إلى زيارة مكة والبيت العتيق، طلع رسول الله ﷺ، إلى صحابته بأحد أيام ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة، فدعاهم والمسلمين ومن يريد من العرب وأهل البوادي، للخروج معه إلى بيت الله الحرام الذى جعله سبحانه وتعالى مثابة للناس وأمنأ.. وينهى إليهم ﷺ - أنهم درءاً لأية ظنون أو مخاوف قد تلابس قريشاً، فلن يخرجوا بأى سلاح إلا السيوف فى القرب.. ومضت الأيام فى التأهب للرحلة الميمونة المأمول أن تحترم قريش أنها فى الأشهر الحرم المرفوع فيها أى قتال.. ثم خرج المسلمون بملابس الإحرام من المدينة ومعهم من الهدى سبعون بدنة.. يتقدمهم الرحمة المهداة عليه السلام - على ناقته القصواء.. ومن حوله الصحابة من المهاجرين والأنصار.. شاخصين بقلوبهم وأفئدتهم إلى البيت العتيق.

وعند «ذى الحليفة» على الطريق إلى مكة، صلى الرسول ﷺ - الظهر بالمسلمين، ودعوا بالبدن فحللت، ثم أشعر منها، وأحرم الرسول عليه السلام والمسلمون بالعمرة لتطمئن قريش إلى أنهم جاءوا زائرين للبيت معظمين له.. واستأنفوا المسير

ملبين تتصاعد تلبياتهم إلى عنان السماء.. فيسلكون طريق البيداء، ويمرون بالأبواء حيث يتوقفون لبعض الراحة، ويتنزل الروح الأمين فيوحى إلى رسول الله ﷺ الآية ١٩٦ من سورة البقرة، وفي «الجحفة» نزلت القافلة للراحة والصلاة وقضاء شئون الناس.. ليستأنفوا طريقهم إلى مكة المكرمة محرمين معظمين للبيت الحرام. بيد أن قريشاً يشتعل غضبها حين يأتيها الخبر، فيجتمع كبارها بظاهر الكعبة، ويقترح صفوان بن أمية أن يقدموا مائتي فارس إلى كراع الغميم بقيادة رجل جلد، فاقترح البعض خالد بن الوليد أو عكرمة بن عمرو بن هشام (ابن أبي جهل)، ولم يكونا قد أسلما بعد، فيستقر الأمر على انتداب خالد بن الوليد لهذه المهمة، وتشرع قريش لفورها في استنفار الأحابيش وجلب من تستطيع من ثقيف.. وسارعوا في الخروج في اليوم التالي إلى حيث ضربوا مضاربهم عند «بَلَدَح».. وهو موضع خارج مكة.. وجعلوا يبثون العيون على رؤوس الجبال وقد انتنوا القتال لمنع الرسول ﷺ والمسلمين من دخول مكة.

وعند غدير الأشطاط.. وهو موضع تلقاء الحديبية وراء عسفان، على ثلاث مراحل من مكة، حيث أناخ المسلمون رواحلهم، قدم بشر بن سفيان من بنى كعب موفداً من قريش للقاء النبي ﷺ، فجعل يقول للرسول إن قريشاً خرجت ومعها العوذ المطافيل (النوق ذوات الألبان).. ولبست جلود النمر، ونزلت بذي طوى، وتعاهدت ألا يدخل محمد عليهم مكة أبداً، وأن خالد بن الوليد ومعه عكرمة بن أبي جهل قد عسكرا بالخيل عند كراع الغميم.

أخذه النبي ﷺ بالرفق والحجة، وأبدى وأصحابه الذين شاورهم، أنهم جاءوا معتمرين ولم يجيئوا لقتال أحد.. واستأنف المسلمون مسيرتهم المباركة حتى بدت لهم كراع الغميم على خيط الأفق، وخالد بن الوليد واقف بخيله - بين المسلمين وبين القبلة، ولكن النبي ﷺ يأمر بلالاً بأن يؤذن للصلاة وقد حل ميقاتها، وصلى عليه السلام بهم بينما في، وقف عباد بن بشر في بعض الفرسان لحمايتهم في أثناء الصلاة، وبعدها يتنزل الروح الأمين فيوحى إلى الرسول ﷺ الآية ١٠٢ من سورة النساء.

يتوالى المبعوثون من قريش إلى رسول الله ﷺ بغرض إثنائه عن دخول مكة.. جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزامى فى رجال من قومه، ولكنه عاد إلى قريش بما لا يرضيها.. فجعل يبدي لهم أن محمداً لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً للبيت.. فتغضب قريش لحديثه، ويصبح البعض ثائراً معترضاً أن يدخل محمد عليهم مكة عنوة.. فتتحدث بذلك العرب.. وبعد أخذ ورد، تتوافق قريش على انتداب عروة ابن مسعود الثقفى للحديث إلى الرسول ﷺ فيحاول فى البداية ما حاوله سابقاه، ويحذر النبى عليه السلام من أن يجتاح قومه وأهله، ومما يمكن أن يتعرض له إذا أخذته قريش أسيراً وقد جمعت له الجموع، ويغضب الصحابة لتطاول الرجل فى حديثه إلى الرسول ﷺ، فيعود عروة إلى قريش بغير الوجه الذى ذهب به، ويقول لزعمائها: «يا قوم إنى وفدت إلى الملوك: كسرى وقيصر والنجاشى، فما رأيت والله ملكاً قط أطوع فيما بين ظهرانى من محمد فى أصحابه»!.. ثم يشير على القرشيين بأن يقبلوا ما عرضه محمد، من دخول البيت زائراً معتمراً، فيغضب القرشيون حتى هددوا الرجل بأنه لو تكلم بهذا غيره، لكان لهم معه شأن آخر! ولم ينجح مبعوث قريش التالى: الحليس بن علقمة، فيما أخفق فيه سابقوه، فعاد من لقاء محمد عليه الصلاة والسلام ليقول لقريش.. والله ما أراد إلا زيارة البيت.. ولم يأت لقتال.. فعارضه القرشيون وسفهوه، ثم بيعت النبى - عليه السلام - بعثمان بن عفان، وله عزوة فى مكة، لمقابلة قريش وإخبارهم بأنهم لم يأتوا لقتال، وإنما جاءوا عمّاراً.. وغاب عثمان فى مكة حتى ظن المسلمون بأن قريشاً قد قتلته.. وتصاعد غضب المسلمين، حتى قال الرسول ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا الناس إلى البيعة، فبايعه جميع المسلمين فى هذا اليوم تحت الشجرة، ولم يتخلف يومها سوى الجد بن قيس أخى بنى سلمة، بينما كان أبو عبيدة بن الجراح فى مقدمة الذين بايعوا يومئذ على الموت، فيما عرف ببيعة الرضوان، وفيها نزلت الآيتان ١٨، ١٩ من سورة الفتح، وما يكاد يمضى يوم، حتى يعود عثمان بن عفان سالماً من مكة حيث استقبله المسلمون فرحين

مكبرين. ولم يمض على قدومه يوم، حتى أتى سهيل بن عمرو موفداً من قريش، ليبدى أنهم يريدون مصالحة الرسول ﷺ على أن يرجع عامه هذا، حتى لا يقال إنه دخل على قريش عنوة، على أن يأتي للاعتماار فى العام القابل.

وفى الحديبية دارت محادثات الصلح، شاقّة ومضنية، والرسول - عليه السلام - يبذل من صبره وحلمه، وطالت المفاوضات حتى ضاقت الصدور، ثم بدت تباشير صلح توضع فيه الحرب عشر سنين، وأن يأمن الناس بعضهم بعضاً، وأن يرجع الرسول ﷺ بالمسلمين عامهم هذا، فإذا كان العام المقبل قدمها فخلت قريش بينه وبين مكة..

هنالك تثور ثائرة عمر بن الخطاب، فينتحى بأبى بكر جانباً ليقول له غاضباً: يا أبا بكر، أليس رسول الله حقاً؟! قال: بلى! قال عمر: أو لسنا بالمسلمين؟ قال أبو بكر: بلى! فقال عمر: أو لسنا على حق وهم على باطل؟ قال أبو بكر: بلى! فقال عمر دون أن يفارقه غضبه: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟! ولماذا نرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم؟!

حاول أبو بكر أن يهدئ ثائرة عمر، فقال له: «إنه رسول الله، وليس يعصى ربه، هو ناصره، فاستمسك بعرزته حتى تموت، فوالله إنه لعلى حق، وإنى أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به!»! رد عمر: «وأنا أشهد أنه رسول الله». ولكن عمر ترك أبا بكر ويمم شطر النبي ﷺ ليعاود ما قاله لأبى بكر.. فيقول للرسول: يا رسول الله، أأست برسول الله؟! قال الرسول: بلى. قال عمر: أو لسنا بالمسلمين؟ قال النبي ﷺ فى حلم: بلى.. فقال عمر: أو ليسوا بالمشركين. قال النبي ﷺ دون أن يفارقه صبره وحلمه: بلى. فقال عمر: فعلام نعطي الدنية فى ديننا؟! فيجيبه النبي ﷺ فى صبر وحلم: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى.

ولكن عمر يأبى فى غضبته إلا أن يكرر ما قاله، فيردد: «يا رسول الله، علام نعطي الدنية فى ديننا ونحن على الحق»؟!!

هنالك يتقدم المجاهد الحكيم الحلیم، أمين الأمة: أبو عبیدة بن الجراح، فیعاتب عمر عتابًا شديدًا ویقول له ناهرًا: «ألا تسمع یا بن الخطاب رسول الله یقول ما یقول، تعوذ بالله من الشیطان الرجیم واتهم رأیک ولا تخالف رسول الله!»

ویروی الواقدی وغيره من الرواة، أن کلمات أبی عبیدة أفاقَت عمر بن الخطاب من غیبة الغضب الذی ألم به، فطفق عمر یتعوذ بالله من الشیطان الرجیم وقد بلغ به الحیاء کل مبلغ علی ما تحدث به إلى رسول الله. وجعل یکرر تعوذه بالله من الشیطان حتی هدأ وجاءته کلمات الرسول ﷺ عاتبةً فی رفق نبوی: «یا عمر، ترانی رضیت وتأبی؟!»

وأنت تستطيع أن تقدر حکمة ومکانة أبی عبیدة بن الجراح، حق قدرها - إذا استرجعت هذا المشهد، ورأیت کیف نجح أبو عبیدة فیما لم یوفق فیهِ أبو بکر الصدیق علی مکانته وأخوته وصدافته لعمر.. وکیف یكون أثر هذا الذی وصف بالرفق والدمائة واللین وطول الصمت، حین یتحدث، فیکون لکلماته وقع السحر الذی بدا كأنه أیقظ عمر بن الخطاب من ملمة ألمت به کاد یلقى بها أمرًا عظیمًا!!

وإذ استوت الأمور، وهدأ من كانوا علی رأی عمر، بدأ النبی ﷺ یملی شروط الصلح علی علی بن أبی طالب:

«اكتب، هذا ما صلح علیه محمد بن عبد الله - سهیل بن عمرو، اصطلحا علی وضع الحرب عن الناس عشر سنین یأمن فیهن الناس، ویکف بعضهم عن بعض، علی أنه من أتى محمدًا من قریش بغير إذن ولیه رده علیهم، ومن جاء قریشًا ممن مع محمد لم یردوه علیه، وأن بیننا عیبة مکفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال (لا سرقة ولا خیانة)، وأنه من أحب أن یدخل فی عقد محمد وعهده دخل فیهِ، ومن أحب أن یدخل فی عقد قریش وعهدهم دخل فیهِ». ثم أملى الرسول ﷺ ما طلب سهیل بن عمرو إضافته، أن یرجع - علیه الصلاة والسلام

- عامه هذا فلا يدخل مكة، وأنه إذا كان عام قابل تخرج قريش فيدخلها محمد بأصحابه فيقيمون بها ثلاثاً معهم سلاح الراكب السيوف في القرب، ولا يدخلون غيرها.

وشهد، على هذا العهد، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب - وهو كاتب الصحيفة، وطلحة بن عبيد الله، والزيبر بن العوام، وأبو عبيدة ابن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. ومن الأنصار: الحباب بن المنذر، وأسيد بن حضير، وسهل بن حنيف.

وقد دلت الأحداث، أن ما وافق عليه رسول الله ﷺ، كان عين الصواب، فقد ضاقت قريش ذرعاً بمن احتجزتهم أو رُدُّوا إليها ممن أسلموا، فلم يعد لها فيهم حاجة، ولا حكمة في بقائهم بمكة يحدثون الناس بالإسلام الذي اهتموا إليه فيتأثرون بهم، وكانت قصة أبي بصير الذي رده الرسول ﷺ ولاذ بساحل البحر، أصدق مثال على ذلك، فقد بدأ المسلمون الفارون من مكة، أو المردودون إليها، يلوذون به على ساحل البحر، وجعلت أعدادهم تتزايد، وصاروا بقوتهم المتزايدة شوكة في جنب قريش حتى أرسلت إلى رسول الله ﷺ تناشده الرجوع في هذا الشرط الذي بات وبالأعلى على قريش!!!

### الجندي المجاهد في غزوة خيبر (المحرم ٧هـ)

ما لبث المسلمون أن عادوا في ذي الحجة من العام السادس للهجرة، حتى تأكدت الأخبار أن يهود خيبر ومن لحق بهم من بني النضير وقينقاع وقريظة، قد نشطوا مع جيرانهم وأحلافهم من قبائل بني غطفان، على حرب الرسول ﷺ، واعددين من يؤلبونهم على أن لهم ما يشاءون من ثمار خيبر، وهي واحة كبيرة بشمال المدينة على طريق القوافل المصعدة إلى الشام والآتية منها، وتتخللها سبع قلاع صخرية اشتهرت بالمناعة.. وجد اليهود فيها منعة حينما هاجروا إليها

من قديم - وإلى المدينة - فراراً من بطش الرومان! .. واشتعلت خيبر بتحريض بني النضير الذين ذهبوا إليها بثاراتهم منذ أُجبروا على الجلاء عن المدينة.. حتى جعل المقاتلون من اليهود يخرجون كل يوم بالآلاف ليتصايحوا تيهًا بمنعتهم في خيبر، ويتصايحون ساخرين: «محمد يغزونا هيهات هيهات!»!

استقر الرأي بعد مشاورة النبي ﷺ لكبار الصحابة، على الخروج إلى خيبر للحيلولة بين ما يعده يهود خيبر وأحلافهم من قبائل غطفان، ونادى الرسول ﷺ: «لا يخرجن معنا إلا راغب في الجهاد».. ورد عليه السلام من أرادوا من المنافقين الاشتراك طلباً للنعيم، ولم يقبل إلا من خرجوا معه إلى الحديبية، وباعوه بيعة الرضوان. وخرج المسلمون من المدينة إلى خيبر في المحرم من السنة السابعة للهجرة في أرجح الروايات، وحمل اللواء على ابن أبي طالب، ودفع عليه السلام رايةً إلى الحباب بن المنذر، ورايةً إلى سعد بن عباد، وخرج معهم الجندي المجاهد أبو عبيدة بن الجراح، صاحب الحكمة المصفاة في الحديبية، والحاضر في جميع المشاهد إلى جوار رسول الله.

ولست أريد أن أطيل على القارئ في تفاصيل هذه الغزوة، فلا يتسع المقام لذلك هنا، ويمكن لمن يريد التفاصيل وقصة الشاة المسمومة التي دُست لاغتيال رسول الله ﷺ أن يرجع إلى كتابي: السيرة النبوية في رحاب التنزيل<sup>(١)</sup>، وإلى سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد<sup>(٢)</sup>.. وموجز أحداث هذه الغزوة التي حضرها وشارك فيها صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح، أن المسلمين كتموا وجهتهم وساروا ليلاً حتى فاجأوا أهل خيبر بمقدمهم.. حيث بدأوا بمنطقة «النطاة».. وبها أربعة حصون، سرعان ما سقط أولها، حيث حرص الرسول ﷺ على أن ينهي عن تقطيع النخيل، وثنى بحصن «ناعم» بعد حصن «النطاة»، وكان حصناً مليئاً بالسلاح والدروع والدبابات، دل المسلمين إلى منفذه أحد اليهود، وتواترت الروايات عن

(١) السيرة النبوية في رحاب التنزيل. رجائي عطية ١٩١/٤ - ٢٥٨.

(٢) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد - ١٨٠/٥ - ٢٦٧.

صدق بلاء المجاهدين، حتى سقط حصن «ناعم»، حيث نادى الرسول ﷺ - بعدم المساس بنساء اليهود، قبل أن ينتقل هو والمسلمون إلى تل «الشق» بشمال خيبر في اتجاه الشام، حيث سقطت قلعتا «شموان»، وأمر النبي عليه السلام بتحريم زواج المتعة باليهوديات وبألاً يتم الزواج باليهوديات إلا بعقد أسوة بالمسلمات، ثم انتقل المسلمون إلى منطقة الكتيبة بخيبر، وحاصروا حصن «القموص»، وهو حصن أبى الحقيق صاحب الباع الكبير فى الحرب على الرسول ﷺ والمسلمين، وهو من أكثر حصون خيبر قوة ومنعة، ومع أن النبي عليه السلام قبل الصلح الذى جاء فأبداه كنانة بن أبى الحقيق ورهط من اليهود، شرطاً عليهم ألا يكتموه شيئاً أو يخونوه، فإنهم بفعل وتدبير زينب بنت الحارث اليهودية، انتقاماً لزوجها سلام بن مشكم، دسوا شاةً مسمومة أهدوها بعد شئها إلى الرسول ﷺ وأصحابه لقتلهم، لولا أن اكتشف النبي - عليه السلام - من أول قضة أنها مسمومة، وقال لمن معه: «كفوا أيديكم فإنها مسمومة». إلا أن بشر بن البراء كان قد طعم منها ما عجل بوفاته مسموماً، حيث اعترفت المرأة اليهودية بما فعلت، وعزته إلى ما نال زوجها وقومها من المسلمين.

يبقى من نبا هذه الغزوة، أنها انتهت بتصالح أهل فذك اتقاء لما حدث مع حصون خيبر التى سقطت تباعاً، وقبل أن يغادر المسلمون عائدين إلى المدينة، وصل من كانوا قد أتوا من الحبشة، وفيهم جعفر بن أبى طالب، وأم حبيبة بنت أبى سفيان، التى كان النبي ﷺ قد كتب عليها وهى بالحبشة بعد أن ارتد زوجها عن الإسلام وتركها بالحبشة، وفى طريق العودة بعد أن تصالح الرسول ﷺ مع ما بقى من حصون خيبر، تزوج عليه السلام بصفية بنت حىي ابن أخطب بعد أن اختارت الله ورسوله، وأسلمت وحسن إسلامها. وعاد صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح مع من عادوا إلى المدينة ظافرين راضين بصدق جهادهم فى سبيل الله.

## المنكر لذاته فى ذات السلاسل (جمادى الآخرة ٨ هـ)

كانت هذه السرية بعد أسابيع من الامتحان الذى تعرض له المسلمون فى سرية مؤتة فى جمادى الأولى سنة ٨ هـ. وهى السرية التى زلزل فيها المسلمون زلزالاً شديداً، واستشهد فيها الأمير حامل اللواء زيد بن حارثة، ثم استشهد جعفر بن أبى طالب الذى حمل اللواء من بعده، ثم عبد الله بن رواحة، وتوافق المسلمون بعد استشهاد الأمراء الثلاثة الذين عينهم الرسول ﷺ على الترتيب، على أن يتولى القيادة خالد بن الوليد، وكان قد أسلم منذ نحو عام هو وعمرو بن العاص، فقام خالد بعمل عبقرى فى فنون القيادة استطاع به أن ينسحب سالماً بالمسلمين، وهذا العمل هو الذى نال به خالد اللقب الذى أضفاه عليه الرسول ﷺ، وذهب به إلى آخر الزمان.. أنه «سيف الله المسلول».. ولكن بعض المسلمين بالمدينة أبوا إلا أن يستقبلوا العائدين قائلين: «يا فرار، فررتم فى سبيل الله، يا فرار!»

كان لازماً أن يسترد المسلمون هيبتهم بعد هذا الابتلاء، فى الوقت الذى تقاطرت فيه الأخبار بأن جموعاً من «بلى» «وقضاعة» قد أخذت تتجمع فى ذات السلاسل وراء وادى القرى تريد أطراف المدينة، فلما تأكدت الأنباء، تشاور النبى ﷺ وكبار الصحابة، واستقر عليه الصلاة والسلام على أن يرسل سرية إلى هذه التجمعات، اختار لقيادتها عمرو بن العاص، رشح عمرًا لهذا الاختيار للقيادة - أنه ذو رحم فى هذه القبائل، فأمر العاص بن وائل بَلُوِيَّة، وقبيلتها بمثابة أخواله، فأراد النبى عليه السلام أن يتألف بعمره من يمر بهم من قبائل العرب من بَلِيٍّ، وعُدْرَةَ، وبَلْقِين. وخرج عمرو بن العاص فى نحو ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ. وفى موضع بأرض جذام، حيث ضرب المسلمون مضاربهم على ماء يقال له السلاسل والسلسل - أرسلوا

العيون للاستطلاع، فأفادت الأرصاد أن جموع القوم كثيرة، فبعث عمرو إلى النبي ﷺ أن يرسل إليه مدداً، فأرسل إليه عليه السلام مدداً في نحو مائتين من سراة المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح.

ويروى الرواة، أن عمرو بن العاص اعترض على إمارة أبي عبيدة بن الجراح له، وتذرع بأنه جاء بمن معه مدداً، وأنه الأمير، وقال لأبي عبيدة: «إنما قدمت عليّ مدداً لي وليس لك أن تؤمّنى وأنا الأمير».

لم يغضب أبو عبيدة مع أنه الأسن والأكبر مكانة وسابقة في الإسلام، وإنما غضب المهاجرون وفيهم من السابقين الأولين أبو بكر وعمر وغيرهما.. وأبوا على عمرو ما يريد، ثم قالوا له أخيراً: «أنت أمير أصحابك، وهو أمير أصحابه».. ولكن عمرو بن العاص قال: «لا بل أنتم مدد لنا».

هنالك يتدخل أبو عبيدة بليته ورفقه وإنكاره لذاته، وهو الذى قال فيه الصديق لمن سأله النصيحة: «عليكم بالهين اللين، الذى إذا ظلم لم يظلم، وإذا أسىء إليه غفر، وإذا قطع وصل، رحيم بالمؤمنين، شديد على الكافرين، عليكم بأبي عبيدة بن الجراح».

بليته ورفقه وحكمته وإنكاره لذاته، قطع أبو عبيدة هذا الحوار، وقال لعمرو: «يا عمرو تعلمن أن آخر شيء عهد إلى الرسول ﷺ أن قال: «إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا، وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنك». وعن طيب خاطر ترك أبو عبيدة لعمرو الإمارة وإمامة الصلاة، ويقال إن المغيرة بن شعبه غضب لذلك، وقال له: «إن رسول الله قد استعملك علينا، وليس لعمرو علينا أمر».. فقال له أبو عبيدة مهدئاً مترفقاً: «إن رسول الله أمرنا أن نتطوع، فأنا أطيع رسول الله وإن عصاه عمرو».. والتزم أبو عبيدة أن يكون جندياً عادياً فيما نذر نفسه فيه إلى الله، وتابع مسيرته مع المجاهدين، فوطنوا بلاد بلى، وكلما وصلوا إلى موضع تفرق الناس من أمامهم، حتى وصلوا إلى أقصى بلاد بلى وعُدرةً وبلقين، فقاتلوا

ساعة وتراموا بالنبل مع الجمع الذى وجدوه، ثم حمل عليهم المسلمون فهربوا، وأقام المسلمون أياماً ليتسامع بهم الناس قبل أن يعودوا موفورين إلى المدينة. ونقل الرواة عن عوف بن مالك، أنه أخبر الرسول عليه السلام بما كان بين أبى عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص، ومطاوعة أبى عبيدة، فقال ﷺ: «يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح».

### سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر (رجب ٨ هـ)

سميت هذه السرية، باسم أبى عبيدة، لأنه كان أميرها.. وسميت سيف البحر، لأنها كانت إلى جماعة من جهينة بالقبيلية مما يلي ساحل البحر الأحمر على بعد خمس ليال من المدينة، وسميت أيضا بسرية الخبث، نسبة إلى المتساقط من ورق الشجر الذى يُخبث بالعصا لتعلفه الإبل، والذى اضطر المجاهدون إلى التبلع به حين جاءوا بعد أن نفذ زادهم الضئيل من التمر.. وأرجح الروايات أن هذه السرية خرجت فى رجب من السنة الثامنة للهجرة، وبقيادة أبى عبيدة ابن الجراح، بعثه الرسول ﷺ أميراً لها على ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، فيهم عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله.

ونقل البخارى ومسلم والرواة، عن جابر بن عبد الله: «بعثنا رسول الله ﷺ فى ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار فيهم عمر بن الخطاب، وأمر علينا رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح، وزودنا بجراب من تمر لم يجد لنا غيره، فكنا ببعض الطريق، وفى رواية فأقمنا بالساحل/ نصف شهر ففنى الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع فكان مزود من تمر، وكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً، وفى رواية: «فكان يعطينا قبضة قبضة، ثم صار يعطينا ثمرة ثمرة حتى فنى.. قيل لجابر: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال كنا نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها الماء فتكفيننا يومنا إلى الليل».

وقد وقفت عند هذه السرية، مع أنه لم يجر فيها قتال، لأنها كاشفة عن صور تجلى فيها أبو عبيدة: القائد، المدبر المفكر، المجتهد. فكان أول ما صادفه من صعوبات، هو الزاد الضئيل الذى خرجوا به من المدينة، فاجتهد بتدبيره ليكفيهم فى هذه السرية التى طال أمدها، واتفقت الروايات على أن أبا عبيدة أحسن بجمع ما مع المسلمين من زاد قليل، ليتولى توزيع القليل منه كل يوم على الجميع بالسوية.. حتى لا يعطى منه لكل فرد سوى قبضة قبضة، ثم خفض نصيب الفرد إلى ثمرة، فلما اشتد بهم الجوع وكاد يهلكهم، اضطرّ وإياهم إلى جمع الأوراق المتساقطة من شجر الطلح ليتبلعوا بها، ونقل الرواة عن جابر بن عبد الله ما فعلوه بورق الشجر فقال: «ثم كنا نخبط الخبْط بقسينا ونسْفُهُ ونشرب عليه الماء حتى سُمينا جيش الخبْط».

وينقل الرواة مشهداً آخر تجلى فيه اجتهاد أبى عبيدة الذى يجتهد رأيه ولا يألو.. فقد طال بالسرية الوقت حتى وهن الناس من الجوع، وقال بعضهم لو لقينا عدوا ما كان بنا حركة إليه لما بنا من الجهد. وتصادف أن مرت قافلة صغيرة من جهينة معها بعض الجُرُر والعيير والشياه، فناداهم قيس بن سعد ابن عباد، وسألهم أن يبيعوه جُرُرًا ينحروها على أن يوفيهم الثمن بالمدينة، فقال له الجهيني: والله ما أعرفك فمن أنت؟. قال: أنا قيس بن سعد بن عباد ابن دُلَيْم. فقال الجهيني إنه يعرف أن أباه سيد أهل يثرب، وقبل أن يبيع له خمس جُرُر كل جزور بوسق من تمر. واشترط عليه البدوى أن يكون التمر ذُخْرَة (يابس) من تمر آل دُلَيْم. وأشهدا على ذلك نفرًا من الأنصار ومعهم نفر من المهاجرين. إلا أن عمر بن الخطاب أبى أن يشهد، وقال: «لا أشهد، هذا يُدان ولا مال له إنما المال لأبيه». ولكن الجهيني أبدى ثقته فى بوفاء والده سعد بن عباد. وقال الجهيني: «والله ما كان سعد ليُخْنى بابنه (يخفر ذمته ويسلمه) فى سقّة من تمر، وأرى وجهًا حسنًا - يقصد قيسًا - وفعالاً شريفًا» فأخذ قيس الجُرُر فنحروها لإخوانه فى مواطن ثلاثة، كل يوم جزورًا. فلما كان اليوم الرابع، وأراد

قيس أن ينحر، نهاه أميره أبو عبيدة بن الجراح، متأثراً فيما يبدو بما كان قد اعترض به عمر، فقال أبو عبيدة لقيس: «تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك». فأجابه قيس: «لا بأس علي». فعاد أبو عبيدة يقول له مترفقا: «عزمت عليك ألا تنحر، أتريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك؟» فأجابه قيس مطمئنا إياه: «يا أبا عبيدة أتري أبا ثابت (سعد بن عبادة) وهو يقضى ديون الناس، ويحمل الكل، ويطعم في المجاعة، لا يقضى عني سقة تمر لقوم مجاهدين في سبيل الله؟!»

وكاد أبو عبيدة يلين، ولكن عمر بن الخطاب انبرى ليقول لأبي عبيدة مكررا: «اعزم عليه.. اعزم عليه». ليقول أبو عبيدة لقيس: «عزمت عليك يا قيس ألا تنحر». فرضخ الشاب لما طلبه الأمير. وروى الرواة أنه بعد الوصول للمدينة، أقر سعد بن عبادة واستحسن تصرف ابنه، ووفى بما التزم به، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ ليقول مداعبا - في حضور عمر: «يا رسول الله، من يعذرني من ابن الخطاب: يريد أن يُبخل عليّ ابني!»

ونعود إلى سرية أبي عبيدة في رحلتها الشاقة، فقد نقل الرواة أنهم حين أدركوا الساحل، ألقى إليهم البحر بدابة يقال لها العنبر.. وهي حوت كبير.. وصفه جابر بن عبد الله بأنه مثل الظراب أو كهيئة الكثيب الكبير. وبادر أبو عبيدة فقال لأصحابه: «ميتة.. لا تأكلوا». ثم قال - بعد روية وتفكير: «نحن رسل رسول الله، وقد خرجنا في سبيل الله، ونحن مضطرون، فكلوا على بركة الله، فأكلنا منه عشرين ليلة، واصطنعنا منه وشيقة (لحم يُقَدَّد حتى ييبس)»، وروى أن أبا عبيدة أمر بضلع من أضلاعه فنصبت، ومر تحتها بعير برحله فلم يصبه، وأباح أبو عبيدة للمجاهدين أن يطعموا منه.

وأنت ترى أنه لولا حكمة أبي عبيدة، لتعرضت هذه السرية للهلاك، ولكني أحب أن أتوقف عند اجتهاده بالنسبة للميتة (الحوت) التي قذف بها البحر.. فقد كان رد فعله الأول: «ميتة.. لا تأكلوا منها!» وتخرج المسلمون بدورهم من أكل الميتة.. ولكن أبا عبيدة عاد ليفكر في روية، فهدهاه اجتهاده إلى رأى

صائب أقره النبي عليه السلام فيما بعد - حين عرض عليه.. فقد رأى أبو عبيدة أنهم مجاهدون في سبيل الله، وأنهم في حالة ضرورة.. ودلت عبارته بوضوح على ذلك: «نحن رسل رسول الله، وقد خرجنا في سبيل الله، ونحن مضطرون، فكلوا على بركة الله».. فأفتى بذلك بما يرفع الحرج عنه وعن المسلمين.

ويتوقف قارئ السيرة ليتأمل طويلاً في موقف واجتهاد أبي عبيدة إزاء الضرورة التي صادفتهم في الجهاد، فصدر في اجتهاده عن صحيح القرآن الحكيم، وهو ما أقره عليه الرسول ﷺ، فالآية (١٤٥) من سورة الأنعام، وهي مكة نزلت بمكة قبل الهجرة إلى المدينة، وإن حرمت الميتة فيما حرمت، إلا أنها استثنت حالة الضرورة، فقالت: ﴿فَمَنْ أَضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥].. وجاء بالآية (١١٥) من سورة النحل، وهي بدورها مكة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا آهَلَ لِعِزِّ اللَّهِ بِهِ ۗ فَمَنْ أَضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥]. والآية الثالثة من سورة المائدة، وإن نزلت بعد ذلك بعرفات في حجة الوداع، فإنها أكدت ما جاء بسورتي النحل والأنعام، ووثقت قاعدة عامة لحالة الضرورة كعذر عام يقيل المكلف من المسئولية. وحالة الضرورة فرع في الإسلام على مبدأ أعم، هو أن المسئولية بعامة مناطها القدرة والاستطاعة، فلا يكلف الله تعالى نفساً إلا وسعها (البقرة ٢٨٦، ٢٣٣، والأنعام ١٥٢، والأعراف ٤٢، والمؤمنون ٦٢).. فاستن القرآن الحكيم قاعدة عامة أنه لا تكليف بمستحيل، وأن مناط المسئولية هو - فضلاً عن التمييز - الحرية والاختيار، فإذا قام عارض يعطل الحرية أو الاختيار، انحسرت المسئولية اعتماداً على إباحة مقررة، كما رأينا في سورتي النحل والأنعام، وكذا بالآية الثالثة من سورة المائدة، وفي حديث رسول الله ﷺ: «الضرورات تبيح المحظورات».

وقد أورد مسند الإمام أحمد بن حنبل، بسنده مرفوعاً إلى جابر بن عبد الله، تفاصيل رواية لسرية الخبث، وما صادفهم فيها حتى قذف البحر إليهم بالدابة

الضخمة التي يقال لها العنبر، وما اجتهد فيه أبو عبيدة وسند اجتهاده إلى أن قال جابر: «فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له فقال: «هو رزق أخرجه الله عز وجل لكم». وهو حديث صحيح على شرط مسلم.

## فتح مكة

(رمضان ٨ هـ)

لم يكد أبو عبيدة وأصحابه يعودون من سيف البحر، حتى تلقوا أمراً في أوائل رمضان ٨ هـ بالتأهب للخروج مع رسول الله ﷺ إلى جهة لم يفصح عليه السلام عنها.. وربما جعل بعضهم يخمن، ويحلل معاني المظاهر التي ماجت بها المدينة.. فقد نقضت قريش عهد الحديبية، بعد أن كانت قد طلبت - تحت ضغط ما لاقته من أبى بصير وجماعته - تغيير ما كانت قد شارطت عليه من أن يرد المسلمون من يأتيتهم مسلماً من قريش، وفوجئت المدينة يوماً بمقدم أبى سفيان زعيم قريش موفداً منها لزيادة مدة الصلح في عقد الحديبية، وتسامع المسلمون بأن كبار الصحابة لم يقبلوا أن يتوسطوا له عند رسول الله ﷺ، حتى لم يجد أبو سفيان بداً من أن يركب راحلته عائداً إلى مكة وقد خابت سفارته!

إن هناك مقدمات تورى بأن مكة في الأفق، ولكن هل يخرج محمد عليه السلام إلى مكة؟ إن أحداً لا يستطيع أن يجزم.. بينما لبي أهل البوادي دعوة الرسول ﷺ للحضور برمضان إلى المدينة، وقدمت أسلم وغفار ومُزينة وجُهينة وأشجع وبنو كعب ثم لحقت بنو سليم، وطوائف من قيس وأسد وتميم وغيرهم من سائر العرب.. والمدينة تموج باستعدادات المهاجرين والأنصار، فلما اكتملت وأوشك رسول الله ﷺ على المسير، كشف للمسلمين أن وجهتهم مكة، ونادى في المسلمين أن من أحب أن يصوم فليصم، ومن لم يستطع فله أن يفطر.. وتحركوا ميممين إلى مكة.

خرج الرسول ﷺ بمن معه، وقد ناهزت عدتهم عشرة آلاف، من جنوب المدينة الذي شهد مقدمه مهاجراً من مكة، ومضت قافلة الفتح في طريقها مروراً

بـ «العَرَجُ».. وهى قرية جامعة على ثلاثين ميلاً من المدينة، ثم بقرب «الطلوب».. وهو ماء فى الطريق بين المدينة ومكة، ثم بـ «قُدَيْدٍ»، وهى قرية جامعة بين المدينة ومكة، حيث ضرب المسلمون مضاربهم، وعقد النبي ﷺ الألوية والرايات للقبائل، ثم وصلوا إلى «الكُدَيْدِ» - قبل قليل من كراع الغميم حيث لاحظ الصحابة أن من آثروا الصوم ولم يستخدموا الرخصة، قد شق عليهم الصيام، ويرى البعض أنهم خُيروا فاختاروا، ولكن الرحمة المهداة ﷺ، يدعو إليه بإناء من الماء، ويضعه على راحته ليراه الناس، ثم تناوله عليه السلام فشرّب فأفطر، ثم ناوله رجلاً إلى جواره فشرّب وشرّب الناس.

وفى مر الظهران، حيث ضرب المسلمون مضاربهم، أتى بعض العصاة الذين كادوا كثيراً للإسلام ورسوله.. أتوا واحداً وراء آخر، ينشدون العفو والأمان، فيتسع لهم فى النهاية بر عفو الرحمة المهداة ﷺ.. ويأتى فيمن أتى - ولكن فى جوار العباس بن عبد المطلب: أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبُدَيْل ابن ورقاء. وفى تفصيل لا يتسع له المقام هنا، اتسع حلم النبي عليه السلام لهم، وبقوا فى صحبة العباس بمضارب المسلمين مدهوشين بصوت الأذان وهروع الناس إلى الصلاة، مبهورين بتكبيرات الرسول ﷺ وتكبيرات المسلمين من ورائه، وركوعهم وسجودهم خلفه.. فيتسرب إليهم مع الغم إحساس بجلال الموقف.. فيؤخذ أبو سفيان حتى يقول للعباس: «يا أبا الفضل، أصبح والله ابن أخيك عظيم الملك!». فيجيبه العباس: «إنه ليس بملك، ولكنها النبوة!»

أعلن أبو سفيان وحكيم وبديل إسلامهم، ومضوا فى صحبة العباس إلى مضيق الوادى المؤدى إلى مكة، عند خَطْمِ الجبل (أنف الجبل)، ويراقب أبو سفيان أرتال المسلمين مبهوراً، فيرى أرتال بنى سليم فى نحو ألف عليهم خالد بن الوليد، يعقبه رتل آخر عليه الزبير بن العوام، ويتوالى مرور القبائل وقد احتبست أنفاس أبى سفيان مما يراه.. ثم تظهر الكتيبة الخضراء وفيها رسول الله ﷺ، وتضم المهاجرين والأنصار، ومع كل بطن من بطونهم لواء وراية.. وفى هؤلاء كان

صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح فى المقدمة على البياذقة أى الرجالة (المترجلين) من المهاجرين.. فدخلوا مكة من أعلاها فى حذاء جبل هند.. وأورد الإمام مسلم فى صحيحه (١٧٨٠) فى باب فتح مكة، أن النبى ﷺ بعث الزبير بن العوام على إحدى المجنبتين، وخالد بن الوليد على الأخرى، وأنه ﷺ بعث أبا عبيدة ابن الجراح على الحسر (الحاسرين من الجنود)، فكان على البياذقة (أى البياذقة وهم الجند الراجلون)، فأخذوا بطن الوادى ورسول الله ﷺ فى كتيبته. وأورد ابن عبد البر فى الدرر (ص ١١٨) - أن مكان أبى عبيدة بن الجراح كان على مقدمة موكب النبى، ونقل ابن كثير فى صفوة السيرة (٣/٢٤٤، ٢٤٥) وابن سيد الناس فى عيون الأثر (٢/١٩١) - عن ابن إسحق، أن أبا عبيدة بن الجراح كان يومها على البياذقة من المهاجرين، وأقبل بالصف من المسلمين ينصب لأهل مكة بين يدى رسول الله، وأن الرسول ﷺ دخل من أذاخر (ثنية بين مكة والمدينة) حتى نزل بأعلى مكة، فضربت له هنالك قبة، فيحنى عليه السلام هامته خشوعاً وتواضعاً وشكراً لله حتى كادت لحيته تمس وسط الراحلة.

كانت هذه المشاهد أكبر من قدرة أبى سفيان على الاستيعاب أو الاحتمال، فيشرع فى الإسراع إلى مكة كيما تحتكم قريش إلى العقل وتلبى دعوة الرسول بتجنب القتال.. وبوساطة العباس يجعل له الرسول ﷺ ما يرضيه، لينشر بين قريش والمكيين أن من دخل بيت أبى سفيان - فهو آمن، إلى جوار أن من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل بيته وأغلق عليه بابه فهو آمن.

وأورد الرواة، أن الرسول ﷺ أرسل من ينادون فى المسلمين: إن رسول الله يأمركم أن تكفوا أيديكم، ولا تقاتلوا إلا من يبدؤكم بقتال.. وأنه حينما بلغه عليه السلام قالة متوعدة لصاحبه سعد بن عبادة، نادى عليه السلام: «بل اليوم يوم المرحمة»، وأمر براية قومه من الأنصار لتعطى لابنه قيس بن سعد بن عبادة، إرضاءً واتقاءً، لما عرف عن قيس من أنه كان أكثر من أبيه حلمًا وهذوءًا، وأنه سوف لا يؤذى مشاعره أن يعطى اللواء لابنه.

وقال الرواة: إنه ﷺ أرسل إلى خالد بن الوليد من يأمره بالكف عن القتال، ولم يقبل عذره إلا عندما تبين أن هناك عند دخوله من «الليط» بأسفل مكة - من بادهوه بالقتال، ورموه ومن معه بالنبال ووضعوا فيهم السلاح، فلما أمره عليه السلام بالكف، قال خالد: قد فعلت.

إن فتح مكة قد حفل بمشاهد كثيرة رائعة، ودروس عديدة مستفادة، لا يتسع لها غرض الكتاب في بيان مواقف وجهاد أبي عبيدة، ولكنى لا أحب أن أترك مشاهد يوم الفتح، دون أن أتوقف عند المشهد الرائع الذي كان بين محمد عليه السلام وقومه الذين آذوه وأخرجوه وقتلوه، حين سألهم: «ما تظنون أنى فاعل بكم؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء».

أما المشهد الثانى، فهو دخوله عليه السلام إلى البيت الحرام، واستلامه الركن، وطوافه بالبيت، وهو يأمر من حوله من المسلمين بهدم الأصنام التى ملأت جنبات الكعبة، ويقال إنها بلغت ثلاثمائة وستين صنماً، تم هدمها واحداً وراء آخر، بينما تتعالى التكبيرات مشفوعة بالعبارة الأثيرة التى تردت فى جنبات البيت: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»!!

ومع هذه المشاهد، وإزالة صور الشرك المرسومة على الجدران، سوف يستوقفك مشهد هدم «هبل» أكبر أصنام الوثنية حجماً.. حين وصلوا إليه، إذ بالنبي ﷺ يطلب من على بن أبى طالب أن يصعد على منكبىه لهدم الصنم، فلما استهول على واستحى أن يصعد على كاهل النبى، وطلب أن يصعد النبى ﷺ على كاهله هو، ولكن النبى عليه السلام أبى ذلك، وأمره: «بل تصعد أنت». وانحنى الرحمة المهداة ليصعد على كاهله فوق ظهر الكعبة، ليزحزح صنم الشرك ويلقيه أرضاً فيتناثر قطعاً ونتفاً، ويتطهر البيت الحرام إلى يوم الدين من كل مظاهر الشرك والوثنية!

## المجاهد في حنين والطائف

وما كاد يتم فتح مكة، وتحطيم أصنام الكعبة، حتى أتم المسلمون هدم «العُزَى» معبودة قريش وكنانة ومضر - في وادي حراض بنخلة، ثم هدموا «سواع» صنم هذيل بن مدركة، وهو على صورة امرأة ومجلوب من بين النهرين، واعتادت هذيل ومن حولها من الأعراب عبادته والتقرب إليه، ثم هدموا «مناة» بموضع يقال له: «المُسلَّل» من ناحية البحر إلى «قديد»، وأرسلوا السرايا والبعوث حتى خشيت هوازن - وكانت مضاربها على مقربة من مكة - خشيت أن تدور عليها الدوائر، فأزمنت الشر والبغى والعدوان، وأخذ سيدها مالك بن عوف النضرى يجمع قبائلها، ومعهم بنو هلال بن عامر، واستجابت لهم ثقيف، فاتفقوا على غزو المسلمين، وساروا بالظعن والأموال يريدون بذلك أن يحفزوا همم المقاتلين، فلما أتت الأخبار والعيون بما خرجت له هذه الجموع، أراد المسلمون أن يسيروا إليهم قبل أن يغزوهم، واستعاروا سلاحًا ودروعًا من صفوان بن أمية، فأحضر مائة درع وثلاثة آلاف رمح، واجتمع للرسول عليه السلام نحو اثني عشر ألفًا من المهاجرين الأنصار ومن دخل من المكيين في الإسلام منذ الفتح.. وفي أوائل شوال من السنة الثامنة للهجرة، خرج الرسول بمن معه، وكان فيهم صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذي لم يتخلف منذ أسلم عن أى مشهد من المشاهد مع رسول الله ﷺ، حيث وصلوا إلى وادي حنين، وهناك عقدت الألوية وأعطيت الرايات، وتمت التعبئة، واطمأن المسلمون إلى عددهم وعدتهم حتى قالوا: «لن نُغلب اليوم عن قلة».. بيد أن المسلمين ما كادوا يهبطون من الوادي، حتى فجأهم كمين نصبت هوازن وثقيف في شعاب الوادي وأجنابه ومضايقه، وخرجت كتائبهم بغتةً تهاجم المسلمين وقد أثارت هالة من السواد مع غبش الصبح، وداهمت المسلمين من كل جانب، فانكشفت خيول بنى سليم التي كانت في المقدمة، وارتدت موليةً يتبعها أهل مكة ومن خلفهم الناس مزلزلين منهزمين

لا يلوون على شيء، ولا ينصت الناس من هول الفزع إلى نداءات الرسول ﷺ عليهم: «إلى أين أيها الناس؟!». ولكن النبي عليه السلام ينحاز إلى اليمين، ويقف ثابتاً كالطود، ويلتف حوله نحو ثلاثمائة من المجاهدين، وينادى عليه السلام على الأنصار، بينما انتحى أبو سفيان على جانب من باحة المعركة، مع بعض من بنفوسهم ضغنٌ وموجدة، وجعلوا يتناجون في فرح وشماتة، حتى قال أبو سفيان: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر!!» وقال جبلة بن حنبل سماوى: «ألا بطل السحر اليوم!!»

ثبت المهاجرون والأنصار مع الرسول عليه السلام، ووقفوا في وجوه العدو، يصدون ويقاتلون والرسول ﷺ معهم، حتى توقفت موجات المهاجمين، وارتدت صناديد هوازن وثقيف ناكسين على أعقابهم، متفرقين هاربين في الشعاب التي خرجوا منها، لا يدرون كيف انقلبت الآية وتحول نصرهم إلى هزيمة منكرة.

وكما قرت عين الرسول ﷺ والمسلمين، بما بذله المجاهدون المغاوير، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح إلى جوار علي بن أبي طالب وكافة من ثبتوا وأخلصوا من المهاجرين والأنصار، تضيق الصدور بما كان من انهزام الطلقاء الذين أسلموا يوم فتح مكة، ولكن الرسول ﷺ يرد المحرضين عليهم قائلاً: «إن الله تعالى قد كفى وأحسن. قد كفى الله تعالى.. وعافية الله تعالى أوسع».

لم يترك الرسول عليه السلام هؤلاء الفارين من هوازن وثقيف، فأثر أن يلاحقهم قبل أن يتجمعوا ثانية ويعيدوا تنظيم ما انفرط منهم، فأزمع المسير إلى الطائف، ومعه فيمن معه من المهاجرين صاحبنا أبو عبيدة بن الجراح الذي شهد المشاهد كلها مع رسول الله، وفي الطريق انتدب عليه السلام - الطفيل بن عمرو الدوسى، ليجده إلى «ذى الكفين».. وهو صنم من الخشب لعمرو بن حُمَمة الدوسى، فهدمه وحرقه ولحق بعدها بالمسلمين على مشارف الطائف، حيث اهتم عليه السلام بأن يداوى بنفسه ويعالج ويضمّد الجراح البالغة التي أصابت خالد بن الوليد في المعركة.

كانت الطائف راقدة وراء حصن ضخم بالغ المناعة، ملأته ثقيف بالسلح والسهم والنبل والعتاد، فلما دنا المسلمون، أشرف الثقفيون على السفوح والوديان المحيطة، وجعل الرماة يطلقون السهام والمقاليع من الحصن على المسلمين، ثم آثر الثقفيون فى النهاية أن يتحصنوا فى حصنهم، ويطول الحصار حتى بلغ بضع عشرة ليلة، حتى طال الإجهاد بالمسلمين، فأشار سلمان الفارسى بنصب المنجنيق على الحصن، وأقبل الطفيل بن عمرو الدوسى، فأتى بالمنجنيق وبدبابات حشدها له قومه للوقاية من النبل والسهم.. فلما طال الأمر، اقترح البعض قطع الأعناب وحرق النخيل.. وكانت الطائف كثيرة النخيل والأعناب، ولكن النبى عليه السلام يأمر من ينادى فى المسلمين: «كفوا عن الأعناب والنخيل». ولما نادى الثقفيون على النبى من وراء أسوارهم: «إما أن تأخذها إن ظهرت علينا، وإما أن تدعها لله والرحم»، أجابهم عليه السلام: «بل أدعها لله والرحم».

يأمر عليه الصلاة والسلام من ينادون من أسقل الحصن: يقول لكم رسول الله: «أيا شخص نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر».. خرج فى البداية بضعة عشر رجلا من الحصن، يتقدمهم أبو بكر، فاستقبلهم النبى ﷺ حقياً، ونفذ لهم وعده، وأعطاهم الحرية دون أن يعرض لهم أحد بسوء.. ثم نادى المنادون أن من خرج من العبيد فهو حر، فلما قال البعض إن ثقيفاً سوف تلاحقهم، قال عليه السلام: «أولئك عتقاء الله، لا سبيل عليهم».

ولما طال الحصار على الطائف، وكان لدى أهلها مؤن كثيرة، واستشهد فى الحصار بضع عشرة من المسلمين، رأى الرسول ﷺ أنه من الأفضل رفع الحصار عن الطائف بعدما شاور صاحبه نوفل بن معاوية الديلمى وسأله: «ما ترى يا نوفل فى المقام عليهم»؟ قال نوفل مسرياً: «ثعلب فى جحر.. إن أقمت عليه يا رسول الله أخذته، وإن تركته لم يضرك». وتعزز هذا الرأى برؤية رآها الرسول عليه السلام ورواها لأبى بكر، وكان صاحب نظر فى تفسير الأحلام، فقال له رضى الله عنه: «يا رسول الله، ما أظن أن تدرك منهم مع هذا ما تريد»، فوافقه النبى عليه السلام على ما أبداه.

أمر النبي عليه السلام برفع الحصار عن الطائف، وأمر عمر بن الخطاب أن يؤذن في الناس بالرحيل، وشق ذلك على البعض، فأمرهم ﷺ أن يقولوا «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده». وعلى مخرج طريق العودة، ينادى عليه السلام في العائدين مشجعاً: «قولوا آيبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون».. فتصاعدت أدعيتهم بذلك على الطريق، فلما قال له البعض: يا رسول الله، ادع الله على ثقيف. قال: «اللهم اهد ثقيفاً واكفنا مؤنتهم وائت بهم». وقد كان.

### في تبوك

(رجب ٩ هـ)

على مشارف رجب للسنة التاسعة للهجرة، تقاطرت الأنباء إلى المدينة، مع القادمين من الأنباط، بأن الروم يحشدون جموعاً لهم في «البلقاء» بالأردن لغزو حدود العرب الشمالية، وبأنه قد اجتمعت لهم قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة - الموالية لهم.. فاجتمع النبي ﷺ مع كبار صحابته، وناقشوا الأمر من كافة نواحيه، فاستقر رأيهم بعد التشاور على الخروج من المدينة لملاقاة جموع الروم بالشمال قبل أن يدهمهم في أرضهم..

وإزاء طبيعة هذه الغزوة، وطول الطريق إليها، والتعبئة اللازمة للاستعداد لها، لم يجد النبي ﷺ بداً من إعلان المسلمين - على خلاف عادته - بوجهته.. فالمسافة بينهم وبين تبوك بعيدة ممعنة في البعد، والطريق طويل وشاق، والحر في هذه الأيام شديد بالغ الشدة، والزمن زمن عسرة، اشتد فيه الجذب، وقلت الثمار، والناس يحيون المقام - في مثل هذا الهجير - في الظلال.. والعدو الذي يتجمع هناك كبير العدد والعتاد حسبما دلت الأخبار.. فلا بد أن يتخذ الناس للأمر أهبتة، وأن يتجهزوا بما يعين على طول الطريق وعناء الجهد المنتظر.. ثم إنه لا بد لاكتمال التعبئة من إرسال البعوث إلى مكة وقبائل العرب لاستنفارهم

على الخروج مع رسول الله. وقد فعل ﷺ، وأرسل بعوثه إلى القرع وإلى غفار وإلى جهينة وإلى أشجع وغيرها ممن دخلوا من أهل البوادي في الإسلام.. مع بذل الجهود لتوفير المؤن والعتاد والركائب.. وقد استغرق ذلك وقتاً وجهوداً، ومع ذلك لم يتوفر القدر الكافي لمن يريدون الخروج من المخلصين، أما المنافقون فقد أغنت تعلاتهم وأعدارهم عن بذل الجهد لتوفير ما يحتاجونه فيما أطلق عليه المسلمون: جيش العسرة.. ولم تمنع هذه العسرة من ذهبوا باكين إلى الرسول ﷺ أن يعينهم على الخروج معه.. وقد فعل - عليه السلام - قدر ما سمحت به الظروف. وفي شأن هؤلاء البكائين والراغبين في الخروج رغم ضيق ذات اليد، تنزل الروح الأمين على الرسول ﷺ فأوحى إليه من آيات ربه: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أتَوْكَ لَتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحْزَمًا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَرْزًا أَلَا يَحْدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢].

وفي هذه الظروف العسيرة، التف كبار الصحابة، وفيهم صاحبنا أبو عبيدة ابن الجراح، حول رسول الله ﷺ، وتطوع القادرون بما لديهم لتزويد الخارجين إلى الجهاد باحتياجاتهم، ف جاء أبو بكر الصديق بماله كله: أربعة آلاف درهم، دون أن يستبقى لبيته شيئاً، وجاء عمر بن الخطاب بمعظم ما لديه، لم يستبق لبيته إلا الثلث، وتكفل العباس بن عبد المطلب ومحمد بن عمر بتقديم العون للبكائين، وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة جهز بها جماعة كبيرة من المعسرين، قيل إنه أنفق فيها ألف دينار، وكذلك فعل عبد الرحمن بن عوف، وغيرهما، وأتت النساء بكل ما قدرن عليه من المعاضد والخلال والأقرطة والخواتم. وإن هؤلاء الأبرار لفي بذلهم واستعداداتهم، يكشف رسول الله ﷺ أن نفراً من المنافقين يجتمعون تباعاً ببيت «سويلم اليهودى».. ويشبطن الناس، ويتخذون

لهم وكرًا للتآمر وبث سمومهم، فيأمر النبي ﷺ يأمر صاحبه طلحة بن عبيد الله بالذهاب في نفر من أصحابه لتحريقه.. بينما أمعن بنو غنم بن عوف في الكيد والتآمر فجعلوا يقيمون مسجد ضرار مقابل مسجد قباء ليشتتوا المسلمين، فأرجأ ﷺ مواجهة هذا الأمر إلى ما بعد الرجوع من تبوك.

أزع الرسول عليه السلام على الخروج بمن تهيأوا معه، وتحرك يوم خميس، وكان يستحب الخروج فيه، وتخلف عنه نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب: منهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.. كما تخلف لحظة الخروج أبو خيثمة السالمى وأبو ذر الغفارى.. وهم جميعاً نفر صدق لا يُتهمون في إسلامهم.. بينما وقف عبد الله بن أبى بن سلول وسط حلفائه من المنافقين، على كثيب بثنية الوداع يتعجب وإياهم من غزو الرسول لبنى الأصفر (الروم)، ويتنبأ بوخيم العاقبة حتى يقول فى شماتة: «والله كأنى أنظر إلى أصحابه غدا مقرنين (مكبلين) فى الحبال»!

وإن الجيش لفى الطريق إلى تبوك، يعاتب أبو خيثمة السالمى نفسه بالمدينة، ويحمل سلاحه على عنقه، ويخرج طائرًا ليلحق بالرسول ﷺ، فيلتقى بالطريق عمير بن وهب الجمحى فيترافقان معًا إلى غايتهما.. ثم يلحق بهما أبو ذر الغفارى فى مشهد رائع سبقه تساؤل المسلمين عنه. ورد الرسول ﷺ بأنه إن كان فيه خير فسيلحقه الله بهم. وقد كان.. ففى الوقت الذى كان المسلمون يتساءلون متعجبين من تخلفه، كان أبوذر من ورائهم فى الصحراء يعانى مجهدا، وقد خرج بزاد قليل وعلى بعير ضعيف أعجف، من وهج الشمس المحرقة، وهلاك البعير، فيحمل سلاحه وزاده على كتفه، ويواصل الطريق، حتى يبذو للمسلمين شبح قادم على مرمى الأفق، فيقول الرسول ﷺ لأصحابه وهو ينظر إلى حيث أشاروا: كن أبا ذر.. وإذ يظهر مع اقتراب الشبح أنه بالفعل أبو ذر الغفارى، يستقبله المسلمون مهللين فرحين، بينما يقول رسول الله: «يرحم الله أبا ذر.. يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

نعود إلى جيش العسرة الذى خرج فيه صاحبنا المجاهد الأمين: أبو عبيدة بن الجراح، وما جعلوا يعانونه باقى الطريق الشاق، حتى وصلوا إلى مشارف تبوك، فعمسكروا وضمربوا مضاربهم، وبنثوا العيون فى البقاع المحيطة لاستكشاف أية تجمعات للروم بعد أن وجدوا المكان خاليًا منهم.. وعادت العيون لتخبر - بعد أيام - أن الروم كانت قد سبقت لهم أنباء عن مقدم المسلمين، فأثروا الانسحاب إلى «البلقاء» بالأردن.. فشاور النبي ﷺ أصحابه هل يدهم أم يتعقبهم فى أرضهم وحصونها، فتنتهى المشاورات إلى عدم مطاردة الروم.. ثم قام الرسول ﷺ ببعث الرسل إلى الأمراء المقيمين مع أقوامهم على الحدود المتاخمة لدعوتهم إلى الإسلام.. بينما عهد النبي عليه السلام إلى خالد بن الوليد بالذهاب فى أربعمئة وخمسين فارسًا إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وأشفق ملك أيلة: يُحَنَّة بن رؤبة، فأتى ومعه وفد من أهل جَرِيَاء وأذرح، فى ثياب قشبية وصليب من ذهب، فأحسن الرسول استقباله ﷺ وأكرم وفادته، وأعطاه عهدًا أملاه - عليه السلام - على أحد شباب الأنصار، منحهم الأمان، وبأن الله كفىل عنهم بالنعم والإحسان للمسلمين ومن لجأ منهم إليهم من المخافة والتعذير. وفى اليوم التالى يصل مبعوث من هرقل، اختاره عربى اللسان، محملاً إياه بوصاياهُ إلى رسول الله ليرى من أمره ما يحب هرقل أن يراه. ويتسلم النبي ﷺ الكتاب، فيقرأه عليه أحد شباب الأنصار، ويتحدث إلى مبعوث هرقل حديثًا طويلًا، فينزل الحديث فى نفسه منزلًا لم يخف أثره، وينصرف سالمًا حاملاً إلى هرقل ما وجد عليه رسول الله والمسلمين.

وفى دومة الجندل، كان خالد بن الوليد قائمًا بمهمته، واستطاع أسر أكيدر الذى كان فى رحلة صيد لصيد البقر بينما هرب مماليكه وأهل بيته إلى داخل الحصن، فتفاوض معه خالد حتى قبل أن يفتح الحصن إن صالحه خالد على أهله، فيصلحه خالد، ويعود به حيث لحقا بالرسول عليه السلام بالمدينة، وعرض الرسول عليه الإسلام فأسلم وصار له حليفًا.

فمن تبوك، كان الرسول عليه السلام قد بدأ في العودة على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة، بعد أن عقد الاتفاقات والمصالحات، مع أمير أيلة والبلاد المجاورة، وأمنوا حدود شبه الجزيرة العربية بإقامة هذه القبائل المتصالح معها معاقل صد أمام الروم. وهذه النتائج المهمة لم ترض فريقتاً ممن نظروا للأمر من زاوية ما تحملوه من مشاق هائلة، دون أن يغنموا أو يأسروا، وإذا بهؤلاء والمسلمون على مشارف المدينة، يفاجأون بوصول خالد بن الوليد ومعه أكيدر أمير دومة الجندل وعليه حلة من ديباج موسى بالذهب بهت أهل المدينة لمرآها، وبما جاء به وخالد من إبل وشاة بُرّ ودروع، هنالك اضطرب الذين تخلفوا عن اتباعه - اضطراباً يرد الناقدين والمستهزئين إلى صوابهم. وفي المدينة، تخلص الرسول ﷺ والمسلمين من مسجد ضرار الذي أريد به أن يكون شوكة تشتت المسلمين، وتاب الله سبحانه وتعالى على الخلفين - في قصة طويلة - لا يتسع لها المقام هنا - وتنزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالآيات ١٠٧-١١٠ في شأن الذين اتخذوا مسجداً ضراراً، وبآيات العفو الإلهي عن الثلاثة الذين خلفوا، فتقول فيه الآيات ١١٧، ١١٨ من سورة التوبة: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨].

وكانت غزوة تبوك، رجب ٩هـ، خاتمة الغزوات التي خرج فيها رسول الله، وتمت بها كلمة ربك في شبه الجزيرة العربية كلها، وأمن الرسول عليه السلام كل عادية عليها، ليبدأ من بعدها عام الوفود التي توالى على المدينة للدخول في الإسلام وإعلان البيعة لرسول الله ﷺ.

وربما يجد القارئ أننى قد استطردت بعض الاستطراد، ولكنه مقصود لغايات شتى، ليس بعيداً عنها أن أضع أمام القارئ مشاهد المعين الذى تلقى فيه ومنه أبو عبيدة بن الجراح، ونضجت شخصيته ومواهبه وقدراته، نضجاً سوف تراه فى يوم الهول الأعظم، حين لاقى رسول الله عليه السلام ربه، ثم فيما حدث يومها فى سقيفة بنى ساعدة، ثم فى جهاد أبى عبيدة بالشام وفى رحاب الراشدين: أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب.

### الحكيم المنكر لذاته

#### يوم الهول الأعظم

فوجئ المسلمون فى ضحى الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة (٨ يونيو سنة ٦٣٢ م)، بأصوات كالنشيج تتسرب إلى المسجد النبوى من بيت النبى الذى أملوا فى الصباح، حين أتاهم بالمسجد، وحضر الصلاة، أنه ﷺ قد أبل من مرضه، ولكن وسرعان ما تسرب إلى المسجد، مع أصوات النشيج، أن رسول الله ﷺ قد قبض، وفاضت روحه إلى بارئها وهو شاخص يقول: «بل الرفيق الأعلى من الجنة».

أخذ الناس يتسامعون بالنبا العظيم، بين مصدقين ومنكرين، وأسرع عمر بن الخطاب إلى حيث كان جثمان النبى عليه السلام، وهو لا يصدق أنه مات، فكشف عن وجهه فألفاه بلا حراك، فحسبه فى غيبوبة لا بد أنه سيفيق منها. وعبثاً حاول المغيرة بن شعبه إقناعه بالحقيقة الأليمة، ولكن عمر غضب قائلاً له: كذبت! ثم خرج إلى المسجد لا يلوى على شىء، فقال والصدمة لا تزال ناشبة فيه: «لا أسمعن أحداً يقول إن محمداً قد مات. إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى، إنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى ابن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات. والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، وإنى والله لأرجو أن تقطع أيدى

رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات»! وروى عكرمة أنه رضى الله تعالى عنه جعل يقول: «إنما عُرج بروحه كما عُرج بروح موسى، ولا يموت رسول الله حتى تُقطع أيدي أقوام وألسنتهم»، وأضاف عكرمة أن عمر ما زال يتكلم حتى أُرْبِدَ شِدْقَاهُ! وقيل إن أبا بكر الصديق قد جاء وعمر يخطب في الناس، وهم في حالة أشبه بالذهول، فبدأ أبو بكر دون أن يلتفت إلى شيء بالذهاب إلى بيت عائشة، فألقى النبي عليه الصلاة والسلام مُسَجِّي في ناحية من البيت مغطى ببرد حبرة، فأقبل حتى كشف عن وجهه. ثم أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حيًّا وميتًا! ثم قال: «بأبى أنت وأمى، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدًا». ورد البرد على وجه رسول الله ﷺ، ثم خرج وعمر ابن الخطاب لا يزال يكلم الناس.

فقال أبو بكر لعمر: على رسلك يا عمر! أنصت! لكن عمر أبى أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم. فأقبل أبو بكر على الناس وأشار إليهم بأنه يكلمهم، فأسرعوا إليه وانصرفوا عن عمر، وتحديث أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

هنالك أفاق الناس، وخرَّ عمر على الأرض ما تحمله رجلاه بعد أن أيقن أن رسول الله قد مات، ووصف عمر نفسه ما ألم به فقال فيما نقله الرواة عنه: «ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها - أى الآية - فعفرت (دهشت) حتى وقعت على الأرض ما تحملنى رجلاى، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات!»  
 ما إن أفاق عمر من الصدمة، وأيقن أن رسول الله قد مات، حتى جعل يفكر فيما يمكن أن يحدث لو اضطرب أمر الناس واختلغوا بعد وفاة الرسول. هنالك

أسرع عمر يشق طريقه بين المجتمعين بالمسجد، حتى أتى أبا عبيدة بن الجراح، فقال له: «ابسط يدك أبايعك، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله».

قيل إن أبا عبيدة وجم حين سمع عبارة عمر، ولا بد أنه أدرك بدوره ضرورة البت العاجل في أمر المسلمين، ولكنه لم يرض مقالة ولا رأى عمر، فقال له في عتاب صارم: «ما رأيت لك فَهَّة (السقطة أو زلة اللسان) قبلها قط منذ أسلمت! أتبايعني وفيما الصديق وثاني اثنين؟!».

وأنت لا تستطيع إلا أن تتوقف ذاهلاً متعجباً معجباً بهذا الأمين الحكيم المنكر ذاته، تأتيه بيعة الخلافة، ومن عمر بن الخطاب، والخلافة شرف ترنو إليه النفوس، فيكتم دعوته لفوره، ويعاتبه عتاباً شديداً مسكتاً، فسكت عمر، ولم يعقب، وإنهما لفي تداولهما، إذ جاءهم النبأ بأن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يريدون أن تكون الإمارة على المسلمين لهم، عند ذلك أسرع عمر، وبعد ما رد به عليه أبو عبيدة، فأرسل إلى أبي بكر في بيت عائشة ليخرج إليه. فلما رد أبو بكر بأنه مشتغل في تجهيز الرسول، عاد عمر فأرسل إليه أن هناك أمراً جليلاً لا بد له من حضوره.

خرج أبو بكر، فعلم بما يجري في السقيفة، فأسرع ومعه عمر وأبو عبيدة إلى هناك، حيث وجدوا الأمور متفاقمة بين الأنصار، يريد معظمهم أن يبايعوا سعد بن عباد، ومنهم من يتطرف إلى حدود يمكن أن تثير فتنة بين المهاجرين والأنصار، حتى قال قائل منهم: «أما بعد فنحن أنصار الله، وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، لكنكم تريدون أن تخذلونا من أصلنا فتبعدونا عن الأمر.. وحتى طلب أحدهم إجلاء المهاجرين عن المدينة أو يتولوا عليهم الأمر.. ثم وجه الحديث إلى المهاجرين الثلاثة: أبي بكر وعمر وأبي عبيدة، فقال: «أما والله إن شئتم لنعيدها جَذَعَةً»، فصاح به عمر: «إذا يقتلك الله!»، ورد الأنصار: «بل إياك يقتل!»!

اشتعلت الثورة، وزاد اللغط، ولم يعد أحد يسمع أحداً، هنالك تدخل أبو عبيدة، بحكمته وبهدوئه وحلمه ووداعته ورفقه، فوجه حديثه إلى أهل المدينة،

فقال لهم في رفق ومودة: «يا معشر الأنصار! كنتم أول من نصر وآزر، فلا تكونوا أول من بَدَلْ وَغَيَّرْ!.. ثم استرسل أبو عبيدة يذكر فضلهم ومآثرهم وما بذلوه في نصرة الإسلام والمسلمين.

سكنت هذه العبارات الرقيقة الحليمة، من ثورة النفوس، وعاد الناس يتجادلون بالحجة، وأراد عمر بن الخطاب أن يتكلم، فأمسك به أبو بكر مخافة شدته وقال له: «على رسلك يا عمر! ثم وجه كلامه للأنصار، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد، يا معشر الأنصار، فإنكم لا تذكرون منكم فضلاً إلا وأنتم له أهل، وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب داراً ونسباً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم». وأخذ بيد عمر بن الخطاب وبيد أبي عبيدة بن الجراح، ولكن عمر وأبا عبيدة أبيا هذا الترشيح، وأزمعا بغير اتفاق - أن يردا البيعة إلى أبي بكر الصديق.

وإذ ارتفعت الأصوات، وكثر اللغط، وأشفق عمر بن الخطاب من الاختلاف، سارع فقال لأبي بكر: «ابسط يدك أبايعك، فبسط يده فبايعه عمر وهو يقول: «ألم يأمرك النبي بأن تصلى أنت بالمسلمين! فأنت خليفته، ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا». مست هذه الكلمات قلوب المهاجرين من المسلمين، فلما بايع عمر وبايع أبو عبيدة، بايع المهاجرون ثم بايع الأنصار، وجلس أبو بكر بالغد من ذلك اليوم على المنبر بالمسجد النبوي حيث بايعه من لم يحضروا السقيفة بأمس. وأورد ابن عساكر في تاريخ دمشق<sup>(١)</sup>. رواية عن الحافظ عن أبي بكر أنه قال (يوم سقيفة) لأبي عبيدة: «هلم أبايعك فإن رسول الله ﷺ يقول: إنك أمين هذه الأمة، فقال أبو عبيدة: «ما كنت لأتقدم رجلاً أمره رسول الله ﷺ أن يؤمنا فأؤمنا حتى قبض».

وقيل في بعض الروايات، إن على بن أبي طالب أبطأ في البيعة، وقيل إن أبا عبيدة بن الجراح توجه إلى على فأدار معه حديثاً لينا رقيقاً لم يغفل فيه

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير ١٦٣/٧.

مكانة عليّ ودينه وسابقته ونسبه وصهره وفضله، وأن دوره قادم، وقيل إن علياً أكبر وفادته، وأبدى أنه لن يرى منه إلا ما يسر، ولن يرى أبو بكر إلا ما يرضيه. ومع أن هذه الرواية تتفق مع ما عرف عن أبي عبيدة من نصح ورفق ودمائة ولين، وما عرف عن الإمام علي من فضائل، إلا أن الدكتور طه حسين يتشكك في كتابه: «الشيخان» في رواية من قالوا إن علياً أبطأ في البيعة، وأبدى الدكتور العميد أن ما يرجحه، ويوشك أن يقطع به، أن علياً والعباس كانا مشغولين بتجهيز النبي ﷺ حين بويح لأبي بكر، ويرى الدكتور طه حسين أن الرواة خلطوا بين واقعتين مختلفتين ميقاتاً وظرفاً: الأولى بيعة علي لأبي بكر، ويرى الأستاذ العميد أن علياً لم يبطن فيها. أما الواقعة الثانية التي وقع الخلط بسببها، فهي ما كان من مغاضبة فاطمة لأبي بكر في ميراث النبي ﷺ، واحترام عليّ لشعورها حتى ماتت<sup>(١)</sup>.

ولعله مما يزكى رأى الأستاذ العميد، ما أورده الطبرى في تاريخه - قال: حدثنا عبيد الله بن سعد، قال: أخبرني عمي، قال: أخبرني سيف، عن عبد العزيز بن سياه، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: كان عليٌّ في بيته إذ أتى فقيلاً له: «قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج (علي) في قميص ما عليه إزار ولا رداء، عجلًا، كراهية أن يبطن عنها، حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتجلله، ولزم مجلسه»<sup>(٢)</sup>.

علي أنه أيًا كان الأمر في شأن توقيت وظروف بيعة الإمام علي، فإن ما رأيناه يوم الهول الأعظم بانتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وما جرى من أحداث في سقيفة بني ساعدة، يطلعنا على أهم جوانب عبقرية هذا الأمين أبي عبيدة بن الجراح، من حكمة وعقل، وحلم ودمائة ورفق، وإنكار للذات يجلب عن كل وصف.. رجل تأتيه الخلافة مرتين في يوم واحد، فيأبأها لما يرى أنه

(١) الشيخان لطفه حسين ٣٦ - ٤٥.

(٢) تاريخ الطبرى ٢٠٧/٣.

أصلح للجماعة، وأقدر على القيام بشئونها، ولا تحدثه نفسه فى صدارة تطمح إليها معظم النفوس، ولا تغريه وجاهة ولا إمارة، فيعتب بشدة على عمر، حتى قال له: «ما رأيت لك فهمةً قبلها قط منذ أسلمت! أتبايعنى وفينا الصديق وثانى اثنين». ثم يأبى على أبى بكر نفسه، ويقول له: «ما كنت لأتقدم رجلاً أمره رسول الله ﷺ أن يؤمنا فأمنا حتى قبض». .. ثم تكون حكمته وحلمه ورفقه ودماثة عبارته - بمثابة البلمس الذى نزل على الأنصار بردًا وسلامًا، فهدأت به النفوس، وأشرقت عليها لوامع ما بداخلها من إيمان كادت الثورة أن تشوش عليها، لولا حكمة وعقل هذا الأمين الذى دلت جميع مواقفه أنه يؤثر فى الأحداث، ولا تؤثر فيه ما جرت عليه مطامع الناس!

### مع أبى بكر

تمت البيعة لأبى بكر فى سقيفة بنى ساعدة، يوم وفاة الرسول ﷺ الموافق الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ، فيما سمي البيعة الخاصة، تلتها البيعة العامة بالمسجد فى اليوم التالى ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ الموافق ٩ يونيو سنة ٦٣٢ م. وبدأ الصديق خلافته بخطبته المشهورة بالمسجد التى فيها قال: «أيها الناس! إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينونى، وإن صدفت (أى حدث) فقومونى. الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.. لا يدع قومُ الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم بالبلاء». أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله».

وروى الرواة أنه رضى الله عنه، قام بعدها فخطب فى الناس خطبة فأخرى، أوردتها الطبرى فى تاريخه<sup>(١)</sup>. فقال مما قال فى ثانيتهما: «إن الله عز وجل

(١) تاريخ الطبرى ٣/٢٢٤ - ٢٢٥.

لا يقبل من الأعمال إلا ما أريد بها وجهه؛ فأريدوا الله بأعمالكم، واعلموا أن ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة أتيتها، وسلف قدمتموه من أيام فانية لأخرى باقية؛ لحين ففركم وحاجتكم».

وروى الرواة، أنه لما استخلف أبو بكر، أصبح غادياً إلى السوق، وعلى رقبته أثواب يتجر بها، فلقبه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فقالا له: أين تريد يا خليفة رسول الله؟، قال: السوق، قالوا: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطمع عيالي؟ قالوا: انطلق حتى نفرض لك شيئاً. فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم شطر شاة وما كسوه في الرأس والبطن. ثم قال عمر: إلى القضاء، وقال أبو عبيدة: وإلى الفء، قال عمر: فلقد كان يأتي علي الشهر ما يختصم إلى فيه اثنان.

على أنه كان على الخليفة، بعد دفن الرسول ﷺ، أن ينظر فيما ان عليه الصلاة والسلام قد أزمعه ببعث جيش أسامة بن زيد بن حارثة والذي عقد له لواء قيادته، إلى موضع مؤتة بالأطراف الجنوبية للشام، فقد جعلت الأخبار تترى بأن هناك من ارتدوا من الأعراب وبعض القبائل، قلة تريد العودة إلى حياة الجاهلية بعد وفاة الرسول ﷺ، وآخرون يقصرون ردتهم على الزكاة ولا يصرحون بارتدادهم عن الإسلام وباقي أركانه وفرائضه وتعاليمه.

ووقف الخليفة من ذلك موقفاً حازماً، وكان أول حزمه إنفاذ جيش أسامة ابن زيد، وذكر الطبرى فى تاريخه، أن الناس فى المدينة قد سمعوا من بعد الغد من توفى رسول الله ﷺ منادى أبى بكر ينادى: «ألا يبقين بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف». ونقل الطبرى عن الرواة أن الخليفة نهض بعزم ليتم بعث أسامة، برغم أن هناك من ارتد من العرب، وبدء النفاق، وتفز اليهود والمنافقين، حتى بدا المسلمون بلا غطاء فى الليلة المطيرة الشاتية!